مقابلة خاصة

سميح القاسم:
أفنيتُ عمري في خدمة القصيدة

حوار أجراه: علاء حليحل

يجلس الشّاعر سميح القاسم في غرفة مكتبه الصغيرة في بلدته الرامة الجليلية، ونتحدّث عن الموت. لا يطلب القاسم من الموت إلا بعض الأمور: «لا أطلب سوى أن يمهلني كي أنهي بعض الأمور العالقة. أريد أن أزوّج ياسر (ابنه الصغير)، وأن أصدر عدة كتب أخرى أعمل عليها، ومن الممكن أن أكتب «شغلة» أخرى، ممكن.. ولكنه إذا جاء «طز عليه»!. وآملُ أن يكون الموت مُرتبًا. يعني أن تكون طاولتي وأوراقي مُرتبة. أن تكون الكتب التي أرغب بطبعها في المطبعة، ألا أكون مدينًا، أن يكون أولادي مرتبين في أعمالهم وحياتهم. أن يكون بيتي مُرتبًا. وليأتِ الموت وأنا مُستحمٌّ ومُرتدٍ ملابسَ جميلة ومرتبة. أنا أحبّ الأناقة حتى في الموت. أحبّه أن يكون أنيقًا ونظيفًا وجميلاً ومُرتبًا.»

كان هذا الحديث الصّادم في برودته وعقلانيته عن الموت آخرَ ما تحدّثنا عنه، بعد ثلاث جلسات طوال استغرقها هذا اللقاء المُسهب. القاسم لا يحبّ المواربة أبدًا، يتحدّث بصراحة ومباشرة عن كلّ شيء: عن الموت، ومرض السّرطان الذي دهمه، عن الطائفة العربية الدرزية وعلاقتها بالمجتمع العربيّ ككلّ، عن السّنة التي أمضاها في الجيش الإسرائيلي مسجونًا ومُدرّسًا، عن حبه الكبير لرفيق دربه محمود درويش،

وعن «الخيانة» التي شعر بها حين ترك الأخيرُ البلادَ عام ١٩٧٠. تحرّجتُ في أكثر من مرة في جلساتنا الطوال من السّؤال عن مواضيع حساسة ربما، النساء مثلا، لكنه كما في كلّ مسألة طرحتُها وطرحها لم يتهرّب ولم يتلعثم. يقول بثقة كبيرة: «نعم، على الشاعر الجيّد أن يكون دون جوان.. هذا ما أقوله عني على الأقل»، ثم يضحك.

لهذا لم أتحرّج من افتتاح هذا الحوار بهذا المقطع عن الموت. هو مدخل صعب إلى السّهل المُمتنع الذي عاشه شاعر المقاومة طيلة حياته. خرجت من عند القاسم بحبّ جديد لشعر المقاومة وثقافتها، بعد أن ثرنا عليه أنا وجيلي المعاصر. وبين الرّفض السّابق والحبّ الجّديد، امتدّت تسع ساعات من الحديث والكلام. هذه المادة حوارية، هدفها الأول والأخير الاستماع إلى أحد أبرز وأهمّ الشعراء العرب والفلسطينيين، ومحاولة فهم هذه المسيرة التي عاشها بالطول والعرض. بعد الاستماع إلى التسجيلات، لم أجد مكانًا للإسهاب في تجربته الشعرية كما كنتُ خططتُ في البداية. التجربة موثقة في كتب نقديّة كثيرة وهي مُتاحة للدارسين والمهتمين.

ينبسط القاسم حين أناديه «يا رفيق». يقول: «كلمة يا رفيق لم تعد في الموضة، ولكن جيد أنك تستعملها. برافو عليك.. هي كلمة إنسانية، حتى الله اسمه الرفيق الأعلى.

يستغلّ القاسم وجودي عنده فيفرط في التدخين وشرب القهوة. أفرط أنا معه أيضًا، رغم أنني أحاول التقليل من الاثنين. لكنّ التدخين في هذه الحالة نوع من التواطؤ والتحدي ضدّ السياق الذي نجلس فيه. يبتسم وهو يقول: «أنا متفاجئ من أمر ما. منذ سنة أو أكثر كتبت مقالة ضد برامج الطبخ التي يبثونها على الفضائيات العربية. وكتبت بغضب. ما قصة هذا الشِّف رمزي، والشِّف لا أدري مَن، والمطبخ الفرنسي والمطبخ الإيطالي.. نحن أمّة جائعة! بالكاد نحصل رغيف العيش والطعمية؛ فما معنى هذه البرامج؟

كانت تُجنّني، أتضايق. فهذا تزوير لحياتنا. ليست مشكلة الأمّة العربية الآن الطبخ، ليست هذه مشكلتنا. مشكلتنا رغيف الخبز. ضعوا برامجَ عن العمال

العاطلين عن العمل، عن المثقفين، عن الأكاديميين العاطلين عن العمل. لكنني في المدّة الأخيرة، ومنذ بدء المرض، صرتُ أضطرّ للبقاء في البيت فترات طويلة. ولكن مع تكرار نشرات الأخبار اكتشفتُ أنني صرتُ أتابع برامج الطبخ. (يضحك) هذا شرّ البلية الذي يضحك.. انقلبت على نفسي.. بعد أن كتبت مقالة عنيفة وتوبيخية عن هذه البرامج.»

في تشرين الثاني من العام المنصرم ٢٠١١، أصدر القاسم كتاب سيرة أسماه «إنها مجرّد منفضة» تحت العنوان الرئيسي كتب بشكل غير عاديّ وغير مُتبع: «لأبي محمد سميح بن محمد بن القاسم بن محمد بن الحسين بن محمد بن علي بن الحسين بن سعيد بن خير بن محمد بن سلمان بن الحسين بن علي بن خير بن محمد بن الحسين». ما يشبه شجرة عائلة لأجيال تتعاقب بنفس الأسماء، حاملة معها نواة الاستمرار والتعاقب، وسميح القاسم يحبّ هذه الشجرة. على الحائط قبالته، في غرفة المكتب الصغيرة، تجد خمس أو ست صور للآباء والأجداد وأجداد الأجداد.

لا يمكنك أن تظلّ محايدًا إزاء هذا الحبّ والارتباط بالوجوه والفروع والتاريخ العائلي – القوميّ. أفكّر في هذا الفخر، وفي المساحة الكبيرة التي خصصها في سيرته لكي يحكي عن عائلته، آل حسين.

- ماذا عن حبك وهيامك بآل حسين، عائلتك، كما كتبت في سيرتك. كيف ينشأ فرد مستقل، مفكر، ومغاير، ضمن هذا الجوّ العاطفي، الذي يحوي حبًا عائليًا كبيرًا ربما لدرجة الاختناق؟

سميح القاسم: «هذا الإطار يبلور الطفل. أنتم مثلا، عائلة حليحل عائلة كبيرة لكن كلّ فرد منهم له شخصيّته الخاصّة. لستم لَبنات أو مصنوعين بماكينة. خذ مثلا الشّنفرى، صديقي الذي أحترمه وأحبه جدًا جدًا، صار معاديًا لقبيلته لأنهم اضطهدوه. فالبيئة كانت معادية. أنا على عكسه، البيئة والعائلة احتضنتاني، لكنهما لم تفرضا عليّ شروطًا. مثلا، في الرامة مجلس محلي وتوجد انتخابات، ودار حسين، عائلتي، التي تتحدّث عنها، موجودون كممثلين في المجلس المحلي

منذ تأسيسه. ولكن عند تأسيس قائمة الحزب الشيوعي وغير الحزبيين، وأنا كنت من أولئك غير الحزبيين، دخلتُ في هذه القائمة ضد القائمة العائلية لبيت حسين. لم أنجح في المرة الأولى، لكنني نجحت في المرة الثانية. أي أنني لم أسلم أمري لهم. في البداية غضبوا مني، ولكن لاحقًا احترموا الموقف لدرجة أنهم قبلوا بحلّ القائمة العائلية والاندماج في قائمة الجبهة.

يجب على الإنسان أن يعتزّ بانتمائه القوميّ والقبليّ والعائليّ والأسريّ، أن يحبّ حارته التي يسكن فيها، ويدافع عنها ويحميها، ليس من منطلق التناقض، بل التكامل. خذ مثلا هؤلاء المشايخ في العائلة (يشير إلى حائط الغرفة في بيته المليء بصورهم)، تاريخهم محترم وأعتزّ بهم، منهم الإمام والمختار وغير ذلك، ولكنني لا أريد أن أكون إمامًا أو مختارًا. ولو أنّ لأحدهم تاريخًا سيئًا لما علقت صورته هنا، كنت رميتها، حتى لو كان جدي. أحد أجدادي كان من فرسان صلاح الدين الأيوبي، وقاتل في حطين وغيرها – لذلك أنا أحبّه. أعتزّ بدوره. لو كان مؤسّس العائلة مرابيًا لرفضته ورفضت الانتماء إليه قطعًا.»

- في مقابل هذا يقولون إنّ أيّ مبدع في زمننا المعاصر عليه أن يقتل أباه بشكل رمزيّ، أن يكون متفرّدًا وخاصًا. هل مررتَ بهذا الشيء؟ هل كان هذا القتل شرطًا من شروط إبداعك؟

سميح القاسم: «اِسمح لي، ولكنها نظرية خاطئة جدًا. خاطئة جدًا، جدًا. ليس المطلوب أن تقتل أباك، وإنما المطلوب أن تتجاوزه. هو قدّم ما عنده، وما استطاع إبداعه. في الشعر مَنْ آباؤنا؟ امرئ القيس، عروة بن الورد، الشنفرى، تأبط شراً، المتنبي، المعري، ابن الرّومي، البحتري. هؤلاء آباؤنا. أنا أفهم ما يعنونه بهذه المقولة، أن تقتل أباك يعني تدمير ما سبق، بحسب نظرية أخي وصديقي أدونيس. هذه نظرية تحوي قليلا من الوَلدنة والصّبيانية. فيها نَكْرَجة. يقولون لك: دمّر ما سبق، وابدأ شيئًا جديدًا. ليس هناك شيء جديد (ينمو) على شيء مدمّر بالكامل. الجديد ينشأ على القديم. جديد بالنسبة لماذا؟ عندما تقول إنّ هذا أدب حديث

فبالنسبة لماذا؟..»

- سأقول لك أمرًا في هذا السّياق: أنت شاعر المقاومة بأل التعريف. لا توجد نماذج شعر مقاومة كلاسيكية في تاريخنا، أنت ومن معك اجترحتم شيئًا جديدًا. أي أنّ المتبني والمعري لم يكونا عونًا لك في شعر المقاومة.

سميح القاسم: «هذا بالضبط ما حاولت أن أقوله. الاستمرارية، التحديث والتجديد قياسًا لما سبق. إذا لم أضُفْ إلى المعري والمتنبي وشوقي، ولم آتِ بشيء جديد– فما هو مبرّر وجودي؟ في هذا أنا دائمًا أناقش قضية الحداثة والاستحداث. أنا أزعم أنّ هناك خلطًا في الثقافة العربية بين مفهوم الحداثة وبين مفهوم الاستحداث. الحداثة أن تتجاوز من سبقك، أن تأتي بما لم يستطعه الأوائل: «وإني وإن كنت الأخير زمانه/ لآتٍ بما لم يستطعه الأوائل».

من غير المفروض أن تأتي بما استطاعه الأوائل. دورك أن تأتي بما لم يقله الأوائل. أنت من عصر آخر، الحداثة هي أن تضيف إلى التراث، لا أن ترفض وتنسف وتهدم التراث. أضفْ إلى هذا التراث العظيم الجميل. أنا أحكي دائمًا أنّ امرئ القيس يملك صورًا شعرية قد تنجح الكاميرا بعد خمسين سنة من الآن أن تصلها. وعند المتنبي أيضًا: «مِكرّ مفرّ مُقبل مُدبر معًا». هذه الصورة التي قالها الرجل من ألفي عام تقريبًا، تخيّلها؛ السينما وحدها قادرة على ضبط مثل هذه الصورة. هو مكر ومفر ومقبل ومدبر معًا في نفس الوقت، وفي نفس اللحظة. الحداثة أن تضيف وتستفيد ممّا حولك، ومن التراث وإبداع الشعوب الأخرى، لكن عليك أن تضيف. إذا نسختَ فلا فضل لك. الاستحداث يعني شراء أمير من السّعودية لطائرة هليكوبتر للسفر فيها. لقد استحدث وسيلة سفر. لكنه لو اخترع فيها برغيًا واحدًا فقط فستصبح عندها حداثة. عندها نكون حدّثنا، أضفنا. ولكن الاستحداث يعني أن تستهلك الإبداع والحداثة من دون أن تضيف إليه، مع أنه ضروريّ وأنا لست ضدّه.»

- وهذا، قد يفسر حبك لمباني وبحور الشعر الكلاسيكية حتى اليوم، فيما تركها تقريبًا جميع شعراء اليوم.

سميح القاسم: «طبعًا، طبعًا. تركوا الشعر الكلاسيكي ليس لأنهم يريدون تركه، بل لأنهم لم يستوعبوه. أقولها صراحة. لم يكتشفوا عبقرية الأوزان العربية. العرب فقط هم من يملك هذه الثروة من الإيقاعات. هذه ثروة موسيقية هائلة. صاروا يقولون إنها قيود. كيف تقولون قيودًا؟ هي قيد لمن لا يعرفها. ولكنها أجنحة حرية إذا أنت استوعبت الأوزان وصارت جزءًا من تكوينك الداخليّ، من إيقاعك الداخليّ، من نفسك، فهذه أجنحة حرية ستأخذك إلى أماكن لا تتخيّلها. ولكن حتى في الأوزان الكلاسيكية خطر في بالي مرة أن أضيف شيئًا فأضفتُ. ففي الكلاسيكيات ثمة صدر وعجز في البيت الشعريّ. وأعتقد أنني ربما في رثاء حافظ الأسد طلع معي صَدران للبيت فأبقيتهما، ثم جاء عجزان فأبقيتهما. وتكرّرت معي أكثر من مرة. هذه أصبحت إضافة شخصية للكلاسيك. الأوزان الكلاسيكية بحدّ ذاتها تحوي ثروة، وخسارة، خسارة، وجود نوع من التغريب في تعليم اللغة العربية. ثمة غزو فكريّ وثقافي عند العرب، حتى أنهم لا يتعلمون العروض في المدارس. كيف سيستوعب الطالب المتنبي إذًا عندما يكبر؟ والمعري؟»

- القاسم يغضب عندما يتحدث عن محاولات إخراج الشعر العربي المعاصر من سياقه التاريخي والتراثي واللغوي..

سميح القاسم: «لويس أراغون، أهم شعراء فرنسا، كان يُجنّ ويقول لي لا أريد من أحد أن يشبهني. أريد أن تشبهوا أنفسكم. كبار الشعراء الأوروبيين كانوا يتضايقون من الشاعر العربي الذي يأتي كي يشبههم. كان هؤلاء يترجمون شعرهم للعربية على أنه حداثة وإبداع. وكي لا يُساء فهمي فأنا مع الترجمة وأنا أعرف الشعر الفرنسي والأمريكي والبريطاني والصيني والياباني أكثر من جميع من يدّعون الحداثة. أنا درست هذا الشعر. لكنني لا أريد أن أكون ت.س. إليوت الثاني. لماذا؟

القصيدة العربية سيدة القصائد كلها عبر التاريخ كله. كيف أتنكر لأصلي وتراثي وتاريخي.»

- هذا يفسر لي شيئًا ما. أنت أول شعراء المقاومة، وحتى الآن، وبعد تعاقب الأجيال، بقيت شاعر المقاومة الأخير. هناك من يقول إنّ شعر المقاومة انتهت موضته...

سميح القاسم: «أولا شعر المقاومة ليس موضة كي تنتهي. من يعتبره موضة فهو لا يستوعب ما معنى وجوهر هذا الأدب والشعر. من لا يعرف يقول موضة. هذه قضية تنفس، عملية حياة، نبض. بعد أوسلو بدأوا يناقشونني قائلين: ها هو السلام الآن حلّ. كنت أجيب: لا تكونوا سطحيين. هل زال الاحتلال؟ هل القدس هي عاصمتنا؟ هل تحرّر لواء إسكندرون؟ هل مشكلتي تنحصر في فلسطين فقط؟ لواء إسكندرون هو أرضي الشخصية، والأحواز؟ ٨ ملايين عربي تحت الحكم الفارسي ـ أليست هذه أرضي ووطني؟ هل تحرروا؟ سبتة ومليلية في شمال المغرب. في آخر زيارة للمغرب أخذوني هناك. انهرتُ. انفجرت بالبكاء. قلت لهم لا أريد أن أذهب. كان الوضع هناك مثل حواجز غزة وحاجز قلنديا، وإقليم أوغادين، أرض عربية احتلتها أثيوبيا، هل تحرّر؟ هل انتهت «سايكس بيكو»؟ هل لدينا دولة عربية محترمة علمانية متنورة حضارية تعددية؟»

محمود وأنا، أنا ومحمود

قد تكون فترة الستينيات وحتى نهاية السبعينيات من القرن الماضي من أكثر الفترات إثارة في تاريخ شعر المقاومة والأدب الفلسطيني، حيث اجتمع في حيفا أبرز رموزه: سميح القاسم، محمود درويش، إميل حبيبي، سالم جبران، حنا أبو حنا، عصام العباسي وكلهم كتبوا ونشطوا في دائرة «الاتحاد» و«الجديد». وما تزال هذه الفترة تثير الرومانسيات لدى جيلنا اليوم، من استذكار للقصص و«النهفات» واللحظات المصيرية التي مروا بها. لذلك، من يقرأ سيرة القاسم يشعر بالمفاجأة من علاقته المتسمة بالجفاء نوعًا ما مع هذه الفترة، ومع حيفا، عروس الأدب الفلسطينيّ.

- لنتحدث عن فترة الستينيات والسبعينيات في حيفا. عندما قرأت السيرة توقعتُ أن تتغزل بحيفا أكثر. نحن جيل عشنا وكبرنا في حيفا ولم أشعر فيما كتبت بهذا الوَله بالمكان.

سميح القاسم: «لأنه لم يكن وَلَهًا، صدّقني. عن أيّ وَله تتحدّث؟ حيفا لها دور كبير في حياتنا من دون شكّ، في تكويننا الشعريّ. لكن مثلا عندما تحلّ ليلة «عيد الاستقلال» الإسرائيليّ، كنا أنا ومحمود نذهب إلى مقهى كان اسمه «روما»، ونجلس ونطلب كأسًا ونشرب، وهم يحملون الألعاب ويلعبون مع بعضهم، ويغنون فرحين بعيد الاستقلال. كيف يمكن أن ينشأ وَلَهٌ بيننا وبين حالة من هذا النوع؟ كنا نذهب لاستئجار بيت، وعندما يعرفون أننا عرب، فجأة، يصبح السّعر ثلاثة أضعاف، أو يقولون لنا إنهم أجّروا البيت أمس الأول. نحن نحبّ حيفا والكرمل طبعًا، ولكنّ القضية ليست قضية وَلهٍ. العلاقة والموقف من المكان هما محصّلة الموقف من الإنسان.»

- أنا عملت في «الاتحاد» مثلك. في أحد الأيام دخل إلى غرفتي المحرر المرحوم إدوار الياس وسألني: أنت تعرف على طاولة مَنْ تجلس؟ هذه طاولة سميح، «دير بالك عليها». نحن جيلنا استهلكنا حيفا بقصصك وقصص محمود. بعشق المدينة التي فيها الصّحيفة والسياسة، وإميل حبيبي، وصليبا خميس. قد يكون هذا انطباعي الخاصّ، ولكنني مثلا لم أرَ محمود في السّيرة، أو صليبا. أحسستُ بأنك كنت وحيدًا في حيفا. فرق هائل بين كتابتك عن الرّامة وعن حيفا، في السيرة.

سميح القاسم: «صحيح. طبعًا. في حيفا قضية تناقض غير معقولة. حيفا التي كانت تشمل ثمانمائة ألف عربي قبل العام ١٩٤٨، وثمانين ألف يهودي، وكان رئيس البلدية عربيًا (حسن شكري)، اليوم ـ هذه ليست حيفا! ليست حيفا التي في مخيّلتي. لم أشعر بأنها مدينة عربية فلسطينية. كنت مُلزمًا في حيفا بالتوقيع في مركز الشرطة مرتيْن في اليوم كإثبات وجود، حيفا التي كانت الشرطة تقتحم

بيتي فيها في أي لحظة وتفتش وتعتقل. لا يمكن أن تكون حيفا جانبًا رومانسيًا فقط. غير ممكن. يوجد الجانب التاريخي الرّومانسي، ولكن هناك الجانب الواقعيّ. وإذا قرأت «ملعقة سمّ» ستفهم عمّا أتحدث. حيفا لم يكن فيها أمان، لا يمكنك أن تكون مطمئنًا فيها. أنت غير مستقرّ فيها. تعيش ٢٤ ساعة في اليوم في مدينة ليست لك، هناك سيد يذكرك بأنك مؤقت وعابر. أنا ضدّ الرومانسية المفرطة في أي شيء لأنها تشوّه الحقيقة وتخفيها.»

- فعلا، لا أذكر أنني قرأت نصًا عن مدينة فلسطينية لا يحوي الاحتضان الزائد.

سميح القاسم: «نعم. وإلى اليوم أقول إنه لا يجوز الفصل بين الذاتيّ والموضوعيّ، بين الحلم والواقع. ممنوع الفصل، ثمة تشابك وتداخل، تصادم وتضادّ، بين الحلم وبين الواقع. حتى عندما كنت أخرج مع صديقة إلى غابة أو حديقة ويسمعني شرطيّ أتحدث العربية، يوقفني: «لحظة، بطاقة الهوية». لماذا؟.. لا يمكنك أن تسلخ رومانسية الرحلة في الغابة أو الحديقة عن تطفل هذا الشرطي عليك. وإذا فصلتَ فأنت تخون الحقيقة. الحقيقة كما هي، سواءً أكانت جميلة أم قبيحة، لا يهمّ، المهم لا تجوز خيانتها.»

- رغم ثراء مسيرتك الشخصية، أنا أرى أنّ محاولة هروبك إلى لبنان في شبابك، أهمّ حادثة في حياتك. لأنّ سميح القاسم لو ذهب إلى لبنان وخرج إلى الفضاء الواسع في العالم، فإنه في تقديري سيكتب شعرًا أسوأ. فهناك فرق بين أن تكتب شعر مقاومة من باريس أو موسكو وهنا. ما رأيك؟

سميح القاسم: «وأنا رأيي كذلك. وهذا خلافي مع أخي رحمه الله محمود درويش. خلافي معه معروف، ليس سرًا. فنحن اختلفنا بشكل جديّ. وفي «الرسائل» كتب «أنا نادم على خروجي». نظرية أنك إذا خرجت إلى الخارج فإنك ستتطوّر هي «حكي فاضي». ومحمود في السّنوات الأخيرة رجع إلى جذوره، إلى العفوية، إلى الصّدق الفني. كنت أقول له: «على وين رايح؟» ما تكتبه ليس أنت.

ليس شعرك. وفي فترة معينة كنت أصرخ عليه وأقول له: «والله أتبرأ منك! هذا ليس أنتَ!».

«الصورة التي كانت شائعة عن محمود أنه شرس وعنيف صورة ظالمة وغير حقيقية. كان طفلاً طيبًا وبريئًا ووديعًا جدًا. لكنه اكتشف أنّ هناك فرقًا بين الحداثة، التي أرسيناها، وبين الاستحداث.»

- هل شعرت بخيانة عند مغادرة محمود البلد؟

سميح القاسم: «طبعًا. غضبتُ جدًا وصُدمت. وكتبت وردّ عليّ، وتدخل أبو عمار. طبعًا. كنّا نسير في طريق مع بعضنا البعض، نجوع معا، نعيش معا، نقرأ معا، نعمل نعمل، نتظاهر معا، ونُسجن معاً، ولا يوجد مبرّر. لم يقنعني حتى اليوم.

- لعلاقات الحب والزمالة جانب من الغيرة والتنافس أيضًا. هناك من كتب وتحدّث عن كونك أنت ومحمود مثل «صديقيْن لدوديْن».

سميح القاسم: «لا، هذا تزوير وتشويه. محمود في دنيا الحق، وأنا أجيبك بكلّ صدق وصراحة: لم يكن بيننا في يوم من الأيام شيء اسمه غيرة أو حسد أو منافسة. على الإطلاق. كان يأتي في الليل ويسألني: ماذا كتبتَ؟ ما الجديد لديك؟ أقرأ له. أسأله عن جديده، يقرأ لي. ونتناقش. أنا مثلا عُرفت على مستوى الشعر قبله. ومجموعتي صدرت قبله. وعندما كان يدعوني طلاب جامعة القدس، أو تصل دعوة من الناصرة، أقول لهم أُدعوا محمود درويش أيضًا. كان بيننا تكامل. في آخر رسالة له نُشرت في عيد ميلادي السّتين على ما أعتقد، قال فيها إنّ صداقتنا أقوى من الحبّ. ويحكي فيها ويشير إلى أنه في مرحلة معينة كانت القصيدة تلتفت إلى أختها. تعبير ذكيّ وجميل وحقيقيّ.»

- وتحته نص دفين؟

سميح القاسم: «طبعًا، طبعًا. القصيدة تلتفت إلى أختها، يعني أنها تتأثر

بأختها. أنا اعتبرتها اعترافًا طيبًا وإنسانيًا منه، وعندما رأيته قبّلته وقلت له: «مش بيناتنا». أنا أخوك الأكبر منك، وتجربتي قبلك، وليس عيبًا أن تتأثر بي، بالعكس؛ أنا أخرجتُ محمود من نزار قباني. في مجموعته الأولى «عصافير بلا أجنحة» كان مفتوناً بنزار قباني. كنت أقول له: يا محمود نزار فنان عظيم ولكنه ليس نحن. ليس لنا. شعرنا لا يمكن أن يكون مثل شعر نزار. نحن حياتنا شيء آخر، عالمنا شيء آخر. يجب على شعرنا أن يمثلنا نحن لا أن يمثل نزار أو المتنبي أو أحمد شوقي. نحن نكتب قصيدتنا. وعندما بدأ العالم العربي يقول «شعراء المقاومة» فوجئت، وصرنا نضحك. قلت له: خذ أنظر ماذا كتبوا... لم نفكر في الموضوع ولو لمرة واحدة بأننا شعراء مقاومة وشعراء وطن وخلافه. كانت معركتنا أن نعيش يومًا آخر، وأن نعطي للناس شيئًا من الأمل والفرح عندما نذهب لقراءة الشّعر في عرّابة مثلا. هذا كان همّنا الأكبر. لم تكن منافسة، ومحمود ليس صديقًا لدودًا بل صديق حميم.

«في عزّ خلافاتنا وقعت هذه الحادثة: كان هناك كاتب سوريّ اسمه سعيد حورانية، كاتب قصة مهمّ جدًا، يعيش في موسكو، يحرّر مجلة اسمها «الأوقات الجديدة». عندما سافرتُ إلى موسكو عام ١٩٧١ أو ١٩٧٢ أعد عشاءً كبيرًا على شرفي ودعا الكتاب العرب الذين كانوا موجودين في موسكو، منهم د. حسين مروة رحمه الله، وغائب طعمة فرمان، وتاج السرّ حسن، وفنانون منهم يوسف وأمل حنا وشعراء وكتاب سوفييت. وكان معين بسيسو، رحمه الله، حاضرًا أيضًا. كنا نشرب حين قال أحد الشعراء لا أريد أن أذكر اسمه: أريد أن أشرب نخبًا خاصًا، نخب سميح القاسم المنزرع في الوطن وليس مثل صديقه الذي هرب. وقفت وقلت له: اسحب كلامك فورًا، وإلا سأضربك بالكأس على رأسك! لا أسمح لك بذكر محمود درويش بكلمة. لديه ظروفه ولا تتدخل بيني وبينه. عندها بدأ سعيد حورانية بالبكاء. سألته: مالك، سكرتَ؟ قال: لا، في الشهر الماضي كنتُ في بغداد وجرّب شاعر عراقيّ أن يسيء لك وأجابه محمود درويش بنفس الجواب.

«الناقد سمير فريد كتب مرّة أنّ أمسية هذين الشاعرين في القاهرة ليست أمسية شعرية، بل أمسية سيمفونية. كنا نذهب إلى أيّ بلد، نجلس ونختار القصائد التي

سنقرأها، لكي يكون عملا سيمفونيًا فعلاً. كل هذا الكلام عني وعن محمود ليس صحيحًا، وهو ليس إلا من باب التمني (Wishful thinking). ونوع من النظرة الصغيرة، وغير المحترمة لعلاقتنا وتاريخنا.»

- هذا من جهة، ومن جهة النظر إليكما كمسيطرين على الساحة الشعرية؟

سميح القاسم: «نحن كنا دائمًا نشجع الكتاب الشباب، ولكن السؤال «لماذا أنتما؟» هو سؤال لا علاقة لنا به. ما ذنبنا أنّ تجاوبًا حصل مع قصيدتنا؟ لم يحدث مرة أن اتصل بنا كاتب أو شاعر شابّ ولم نساعده. وأنا لا أنسى أمسية في لندن كان فيها نزار قباني وأدونيس، وأنسي الحاج، ومحمود درويش وأنا، في ذكرى يوسف الخال. جاء شاب لبنانيّ وطلب مني أن أقرأ قصيدة من قصائده وأن أعطيه رأيي. القاعة كانت مليئة بالناس. والشعراء في الصفّ الأول ينتظرون الصعود إلى المنصة. أمسكتُ الدفتر وقرأت قطعة من قصيدة نثرية. أدهشني. قرأت الثانية والثالثة، فقلت له: حضّر حالك سأدعوك لتصعد وتقرأ معنا. ذُهل، ولكنني أصرّيتُ.

كان رياض الريّس عريف الأمسية. قلت له وللشعراء: يوجد شاب هنا قرأت له عدة قصائد، وأدهشني، وإذا أدهشني فسيدهشكم. وأريد أن يكون ضيفنا لقراءة قصيدتين أو ثلاث لخمس دقائق. فقال نزار: «خيي هاي شهامتك رح تخرّبلنا الأمسية». ولكننا أعطيناه الفرصة. وهكذا كان. وكان اسم هذا الشاعر الشاب يحيى جابر.

«حتى المهرجانات التي كنت أُدعى إليها في الخارج لم أكن أذهب من دون أن يدعوا معي شعراء من شعرائنا، مثل شكيب جهشان، وطه محمد علي، رحمهما الله، وحنا أبو حنا، وجمال قعوار، وفاروق مواسي. موضوع المنافسة عندي لم يكن مطروحًا أبدًا، وأنا متأكد من أنه لم يكن مطروحًا أيضًا لدى محمود بالنسبة لي.»

القصيدة أولاً

● من يقرأ السّيرة يشعر بحبّك ومتعتك في السفر. شعرت بأنّ السفر هو وقودك..

سميح القاسم: «صحيح... السفر هو ما ينجم عنه من تجربة وعلاقة إنسانيتين. باريس، لندن، نيويورك، القاهرة، دمشق ـ المكان يستمدّ قيمته من العلاقة الإنسانية. إذا نشأت علاقة إنسانية مميزة ولها خصوصية فستقع في حبّ المكان. أنا أشتاق لباريس مثلا، ولا أشتاق لبرلين. أشتاق للندن وفيينا وبودابست ووارسو وأثينا وإسطنبول، المدن التي لي فيها تجربة إنسانية، سلبًا أو إيجابًا. هذه التجربة تمنح المكان معنًى آخر ومختلفًا.»

● هل تحبّ الفنادق والمقاهي؟

سميح القاسم: «نعم، طبعًا. أنا كتبتُ الحكاية الأولى «إلى الجحيم أيها الليلك» كلها في مقهى في حيفا، «أوريون» أعتقد. كان الغارسون يعرفني، ولي طاولة في الزاوية مع كرسيّ واحد وآتي من الصّبح، أفطر وأشرب القهوة وأدخن وأكتب. الناس يدخلون ويخرجون وكأنهم غير موجودين.»

● هذا أمر نادر، خاصة عند الشعراء، ألا تعتقد ذلك؟

سميح القاسم: «لا أعرف. ولكن الناس لم يكونوا موجودين بالنسبة لي البتة. ينشأ نوع من الانقطاع الكامل، والضجة المحيطة تصبح نوعًا من استفزاز القلم، استطرادات هنا واستطرادات هناك، وحادثة طرق، صوت توقف سيارة مسرعة، يدخل في العمل الذي تكتبه. السّفر مصدر ثانٍ للشاعر والكاتب بعد التثقيف الذاتي. لا بدّ من التثقيف الذاتيّ ومن يعتقد أنه صار يعرف كلّ شيء غلطان وموهوم، ومن يقول «أنا وصلت إلى القمة» غلطان وموهوم. لا أحد يصل القمة. ومن يقول إنه وصل القمة إعلم أنه سقط. القمة أشبه بربنا، الله، غير مدرك وغير محسوس، غير قابل للانكشاف المباشر. حتى الصوفيين كلهم لم يستطيعوا ذلك.»

- هناك مكان واحد في السيرة أحسست حقيقة أنك كنت مرعوبًا فيه. كتبتَ أنك بقيت طوال الليل ترتعد من الخوف، عندما استقلت من الاتحاد، وتساءلتَ: كيف سأطعم الأولاد؟

سميح القاسم: «لا، الصحيح أنني لم أستقل. كانت تلك حادثة سيئة، وتصرف سيئ من بعض القياديين في الحزب (الشيوعي الإسرائيلي)، ليس جميعهم طبعًا. كتبت أنه عندما عرض عليّ توفيق وجورج طوبي أن أشتغل في صحافة الحزب، قلت لهم إنني لست حزبيًا. قالا أنت ستكون أول لا حزبي يشتغل في صحافتنا، وليس شرطًا أن تكون حزبيًا. وعندما وقعت الخلافات بعد مؤتمر غورباتشوف في موسكو، دعا قرابة ٨٠٠ شخص من العالم، وبالصدفة وصلتني دعوة شخصية باسمي الشخصي موقعة من غورباتشوف. وكان محمود في المؤتمر أيضًا. دعا فنانين وكتابًا وسياسيين ورجال دين لمؤتمر من أسبوع للتشاور في مصير الاتحاد السوفييتي.

وعندها تساءلوا في الحزب: لماذا هو؟ قلت لهم هذه دعوة شخصية لي كشاعر. ناقشوا غورباتشوف أنا لا علاقة لي بالموضوع. بعدما عدت رفضوا أن أكتب عن مشاركتي، وأن أكتب عن قضية البيروسترويكا. قلت لهم العالم يتغير، يوجد زلزال، يجب أن نعطي إجابات للناس والشارع وجمهورنا. قسم أيّدني وقسم عارضني. عندها تذكرت جملة فؤاد نصار الشهيرة: «لا تُخرجونا فتخرجونا». سألتهم ماذا تريدون مني؟ قالوا: نريدك أن تمشي كما نريد نحن، فقلت لهم: لا، أنا أمشي كما أريد أنا. واستقلتُ.

«بعد الاستقالة أوقفوا عملي في «الجديد». قلت لهم يا رفاق ما الذي تفعلونه؟ أنا لا أملك مصدر دخل غير عملي. لديّ أطفال في البيت. كيف تفعلون ذلك. قالوا: هكذا القرار. وفعلا، كنت أحيانًا أستيقظ في الليل أتصبب عرقاً، كيف سأطعم الأولاد؟ كانت لديّ سيارة فبعتها، واشتريت سيارة أخرى بنصف سعرها، كي أصرف على الأولاد. وبدأت العمل في الترجمات، فترجمت كتب جغرافيا وغيرها، وعملت في مجلات بسيطة، ثم توجّهوا لي للكتابة في «الاتحاد» أربع مرات في الشهر لقاء مبلغ بسيط، فقلت: فليكن. صحيح، مررت بمرحلة صعبة،

لكن لم أتحول إلى عدوّ للحزب، وأنت تعرف أنّ كل الذين خرجوا من الحزب هاجموه في النهاية. أنا لم أفعل ذلك، وللحزب فضل على شعبنا كله وعلى تاريخنا كله، وبقيت صداقتي واحترامي له وأنا مؤسّس في «الجبهة» ولست عضوًا عاديًا.

«أنا أقول دائمًا إنّ المبادئ والأفكار ليست ربطات عنق وقمصانًا نبدّلها على راحتنا. إما أن يكون مبدأ وإما أن لا يكون. حتى لو أساء لي فلان وعلان من المكتب السياسي، فإنّ هذا لا يغير موقفي من تاريخ الحزب، بخيره وبشرّه، بسلبه وإيجابه، لا أتبرأ من هذا التاريخ ولا أخون ذاكرتي ولا أخون العشرة، بالتعبير البسيط.»

- سألتك هذا السؤال كشاعر وكمبدع، رُزقت بأولاد، ألم يغيّر هذا من أولوياتك في الحياة؟

سميح القاسم: «أنا قلتها وأكرّرها، رغم أنّ زوجتي وأولادي لم يعجبهم هذا الحديث من قبل. ولكن أهمّ شيء في الدنيا لديّ قصيدتي. أهم من صحتي ومن أسرتي ومن الوطن– قصيدتي عندي أهمّ من الوطن.»

- هذا تصريح خطير يا رفيق...

سميح القاسم: «لا، لا، ليس خطيرًا أبدًا. قصيدتي بالنسبة لي أهم شيء في الدنيا. إذا قلتُ غير هذا الكلام فسأكون دجالاً ومهرجًا على شاكلة «أنا أكتب من أجل الشعب ومن أجل الوطن!»– هذا كلام فارغ! أنا أكتب بالدرجة الأولى من أجلي، من أجل سيكولوجيتي، من أجل أن أحافظ على عقلي وعلى توازني. أكتب لكي لا أُجنّ ولكي لا أنتحر، ولكنني لا أحبّ جملاً مثل «أفنى عمره في خدمة الشعب والوطن».. أنا أفنيتُ عمري في خدمة القصيدة ويبدو أنّ هذه القصيدة هامة للشعب والوطن. لكن: القصيدة أولاً. ومن دون هذا، أشكّ في أن ينجح أديب أو شاعر أو فنان إذا لم يكن يملك ما أسميه أنا «شيئًا من الرهبنة». الراهب أو الراهبة يسلمان نفسيهما لله؛ الشاعر يجب أن يسلم نفسه للقصيدة.»

- هل تعرف مدى عمق الاختلاف بين حديثك هذا كشاعر، وبين الصورة التي تحفّ شاعر المقاومة بالشعارات والكلام الكبير. أن تقول إنّ قصيدتك أهم من وطنك هذه مقولة بالغة الأهمية.

سميح القاسم: «لا تؤاخذوني.. ولكن الشاعر الذي لا يتعامل مع قصيدته على أنها أهمّ شيء في الكون أشكّ في صدقه، بصراحة. من يقول لي إنّ الوطن أهم من قصيدتي أقول له «بارك الله فيك». لكنني لا أصدّق ذلك. وهذا قد يُساء فهمه، ولكنه قد يُفهم أيضًا. قد يُساء فهمه باعتباره نوعًا من الأنانية أو الغرور، ولكن أبدًا، أقولها بمنتهى التواضع والصدق والعفوية. ولديّ إضافة: لو لم أكن هكذا لما احتضن الجمهور قصيدتي، وما أحبها. أعتقد أنّ سرّ العلاقة الاستثنائية يكمن في هذا الإحساس: القصيدة أولا، القصيدة أولا. الوطن هناك من يقاتل من أجله ويحرّره، والأسرة تعمل وتعيش، لكن القصيدة كائن خاص جدًا، وإذا لم تتعامل معه بهذا التكريس، وهذه الرهبنة الكاملة والمطلقة فإنك تخونها وتخون نفسك في نفس الوقت.»

ملعقة السم

- في كتابه السرديّ الثالث «ملعقة سم صغيرة ثلاث مرات يوميًا» يسرد القاسم تجربته المعيشية والعاطفية والسياسية في حيفا. الكتاب مليء بالتفاصيل اليومية والقصص، لكنّ المثير فيه حقًا السؤال الذي لا ينفكّ يتبادر إلى الذهن: هل هذا صحيح كله؟ هل مررت بكلّ هذا؟ وبشكل عينيّ: هل حقًا فجرت حبيبتك اليهودية نفسها بدبابة إسرائيلية بعد سجنك؟

سميح القاسم: «صحيح مائة بالمائة. الأمر الوحيد الذي غيّرته هو أنهم عرفوا قبل أن تضرب الدبابة بسيارتها وأوقفوها. كانت ترغب بتفجير الدبابة، وأنا أكملت القصة وفقاً لما كان في مخيّلتها، وما ترغب به. صارت تحكي لصديقاتها في جامعة حيفا، فهدّدوها وحذّروها.»

- حبيبتك الروسية تنيوشكا: هل هي حلم الشيوعية والأممية؟ أنت تكتب عنها برومانسية كبيرة جدًا، كإنسانة وفكرة..

سميح القاسم: «نعم. تتيانا كانت إنسانة جميلة جدًا، وصافية ونقية، وروسية أصيلة. ثقافتها عالية، وأسرتها فعلاً كما وصفت: أبوها جنرال كبير، وكان قائد الجيش السوفييتي في براغ. وأخوها رائد فضاء. وفعلاً، جرّب السوفييت إبعادي عنها باعتبار أن العلاقة تشكل خطرًا أمنيًا، وتحدّث معي أشخاص من قيادة الحزب من عندنا. قلت لهم: أترُك غدًا [يترك موسكو التي كان يعيش فيها وقتها] لن أنتقل من عنصرية إلى عنصرية، ولست قادمًا من قيود إلى قيود. أنا قادم إلى الاتحاد السوفييتي وإذا كان أبوها جنرالا وابنته أحبتني، فلا أسمح لأحد بالتدخل. أنا لا أريد أباها ولا أمها ولا جيشها...»

- حب مع أزمة حزبية؟

سميح القاسم: «فعلا. وصل الموضوع إلى المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي. وتدخل فؤاد نصار، رحمه الله، زعيم الحزب الشيوعي في الأردن. ولكنه تدخل لصالحي، قال لي: لا تستمع لأحد. وابقَ هنا في معهد الفلسفة والاقتصاد السياسي. ثم اعتذر السوفييت، وقالوا إنّ هناك قانونًا بما يخصّ الجنرالات، وحتى لو كنتُ روسيًا أو سوفييتيًا فسنحذر منك. وبعدها تزوجت تتيانا في إيطاليا فعلاً كما كتبتُ، وسكرتُ أنا ليلتها...»

- في هذا الكتاب تكتب: «قلت لكم ولأكرر لكم ولكل البشر أنّ العروبة ليست في نظري عرقًا بل هي مجموعة قيم إنسانية راقية..» إلى آخر الاقتباس. أليست هذه نظرة رومانسية للعروبة والقومية؟ هل هذا النص محاولة للتجسير بين القومية والأممية؟ في حالة وجود ٢٢ دولة والصّراعات والثورات الجارية اليوم.. ماذا يظلّ من مفهوم العروبة؟

سميح القاسم: «مفهوم العروبة واحد وثابت ولا يتغير. ما تغير هو ظروف العرب

الذين أبتعد قسم كبير منهم عن مفاهيم العروبة. إذا كنت تتبع كتاباتي فإنّ أكبر ضربة تلقاها العرب كانت اتفاقية «سايكس بيكو». منذ ١٩١٦ يفكر الاستعمار الغربي في كيفية نشوء الدولة العربية. لأنّ الدولة العربية هي على جوار أوروبا. أطول حدود لأوروبا معنا. ومن التجارب التاريخية ظلت أوروبا مشبعة بأفكار الحروب الصليبية حتى اليوم. أخشى أن يكون الهولوكوست القادم ضدّ العرب والمسلمين في أوروبا. هذا إحساسي. سايكس بيكو هي وضع غير طبيعي، وإفراز استعماري ضد العرب بالأساس. مخاوف أوروبا ليست من المسلمين بل من العرب، لأنّهم أقرب إليها ثقافيا؛ ٨٠٠ سنة من التلاقح الثقافي وشعور الندية قائم مقابل العرب. و«سايكس بيكو» جزّأت العالم العربي إلى ٢٢ دولة غير شرعية بنظري. هذه الكيانات باطلة شرعًا ولا تستحق الوجود وهي ضد إرادة الشعب العربي.»

- تكتب في «ملعقة سمّ» عن النقاش مع اليسار الإسرائيليّ. أنت تبحث بإصرار عن الإنسانية في الوجود الصهيوني هنا. هل وجدتها؟

سميح القاسم: «أبدًا! أنا على قناعة بأنّ الإنسانية والوجود الصهيوني نقيضان. لكن هذا لا يسري على الوجود اليهودي. هؤلاء الفنانون، عوديد كوتلر، وعوديد تيئومي وغيرهما من أصدقائنا، هم إنسانيون. كنت أشعر بهم كأصدقاء بأنهم متعاطفون مع قضيتنا وشعبنا. يجب التمييز بين الصهيونية وبين اليهود. في الحكايات الثلاث التي كتبتها «إلى الجحيم أيها الليلك» و«الصورة الأخيرة في الألبوم» و«ملعقة سم صغيرة ثلاث مرات يوميًا»، هذا التمييز والفصل هو موتيف أساسي؛ نحن لسنا عنصريين، نحن ضد العنصرية.»

- هاجسك، دائمًا، العثور على الإنسانية في الصراع...

سميح القاسم: «طبعًا، طبعًا.»

● وهل نظرت يومًا للخلف وقلت: نجحت في ذلك؟

سميح القاسم: «نجحت في الحالات الفردية. غيّرت أشخاصًا، بلى. أتعرف؟ كانت هناك كاتبة من المهاجرين الجدد من الولايات المتحدة، وتعرفنا على بعضنا البعض وتصادقنا. بعد شهرين أو ثلاثة قالت لي إنها تريد توديعي. تريد العودة إلى أمريكا.. قالت لي: هذه بلادك وليست بلادي. وعادت إلى أمريكا. كما نجحنا في تغيير مفاهيم وضممنا أناسًا إلى الحزب (الشيوعي) والجبهة (الديمقراطية للسلام والمساواة) وكنا نذهب ونتحدث في نوادٍ ومدارس يهودية أنا ومحمود وتوفيق زياد وسالم جبران وجورج طوبي وزاهي كركبي وإميل توما وإميل حبيبي. ولو كسبت من مئة شخص شخصًا واحدًا فقط فإنّ جهدك لم يذهب سدًى. وحتى لو لم ننجح في تغيير المجتمع الإسرائيلي فإنّ هذا لا يجب أن يكون سببًا لإحساسنا بأننا دون كيشوت. نحن أصحاب رسالة وموقف والخلل في الطرف الآخر ليس فينا. توجد قوى ظلامية أقوى منا سيطرت علينا. هذا ليس ذنبنا. نحن كمن جاء لإقامة الدين في مالطة. وإذا لم ترغب مالطة فهي حرة (يضحك). هذا ليس ذنبنا. «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون»، ونحن عملنا ما علينا.»

● أنت عاشرت اليسار الإسرائيلي، وكانت لك علاقات حب وصداقة؛ ما عقدتهم؟ لماذا لا يستطيع اليسار أن يخطو الخطوة الأخيرة نحو اليسارية الحقيقية؟

سميح القاسم: «اليسار الإسرائيلي في ورطة تشبه ورطة حماس إلى حدّ ما. التشبيه غريب ولكن إسرائيل دولة أقامتها الصهيونية، واليسار الماركسي ضد الصهيونية، ولكنه أتى أو تبلور هنا. يوجد تناقض بين فكره وبين الدولة التي أصبح جزءًا منها، وأحد عناصرها ومكوّناتها. وهذا التناقض يمزقهم. الأمر شبيه بحماس، حين شاركت في الانتخابات بعد أوسلو وهم ضد أوسلو. وكانوا يتمزقون وأعرف ذلك من بعض الأصدقاء القياديين في الحركة. هذه حالة غريبة سريالية واليسار الإسرائيلي الذي جاء من الاتحاد السوفييتي وأوروبا أصطدم هنا بواقع صهيوني ورأسمالي متناقض بالكامل مع مثالياته. فلكي تقيم كيبوتس شيوعيًا مثل كيبوتس

«يد حانه» عليك أن تقيمه على أرض عربية. الصراع غير سهل على الإطلاق. و«عين هود» كمثال آخر، حالة سريالية أيضًا.»

- انطباعي الشخصي أنك أغرب شاعر مقاومة. بالإضافة إلى سيرتك والكشف الصريح عن حياتك، وقولك إن قصيدتك أهم حتى من الوطن، وتكتب في «ملعقة سم»: «نحن نكافح لنعيش لا نعيش لنكافح».. لأول وهلة يبدو هذا وكأنه النقيض للصورة التي يجب أن يبدو فيها شاعر المقاومة. أن يحمس وأن يضع القضية فوق كل شيء..

سميح القاسم: «أنت على صواب كامل. أنا ضد شيطنة العدوّ بالكامل وتأليه الشاعر بالكامل، وضدّ رومانسية الطرح. الشاعر إنسان والعدو إنسان. هناك عدو يمكن أن تبرم الصلح معه، وهناك عدو لا بد من أن تقتله أو يقتلك. بالنسبة لمفهوم المقاومة، فأنا أعتزّ بأنّ الكثيرين من النقاد يقولون إنّ سميح القاسم هو مؤسس شعر المقاومة. فكلمة «سأقاوم» تظهر لأول مرة في شعرنا عندي. فأنا وضعي يختلف عن باقي العالم العربي، ليس لديّ جيش ولا دبابات لأقاتل؛ أنا أقاوم. أقاوم الهجوم عليّ. وقصيدة «سنقاوم» خرجت من خطاب عبد الناصر «سنقاتل». كما أنّ اتهام شعر المقاومة بأنه ليس إلا شعرًا حماسياً وتحريضيًا تهمة باطلة. شعر المقاومة رسالته الأساسية، من وجهة نظري، إشعار المظلوم أو الخاضع للاحتلال بإنسانيته الكاملة وبعدم التنازل عن حقوقه وعن إنسانيته. وأنا أقول دائمًا إنّ الصهيونية تنتصر علينا في اللحظة التي نتخلى فيها عن إنسانيتنا، ومُصرّ عليها. مفهوم المقاومة أرقى بكثير من أن تحمل البندقية وتهجم.»

- سأربط هذا السّؤال بما كتبته في «ملعقة سم» عن ليلة الحب والجنس (ص ١٠٠). إنه من أجمل النصوص الإيروسية التي كتبت بالعربية.. هناك شيء مفاجئ بأن يكتب شاعر المقاومة مشهدًا إيروسيًا جنسيًا وعاطفيًا بهذا الشكل.

سميح القاسم: «مرة أخرى: أي صورة نمطية خطرة. قبل حرب ٦٧ أجرت إذاعة

«صوت العرب» في القاهرة مسلسلا إذاعيا من ٧ حلقات عن قصّتي. وأرسلوا لي عبر أوروبا عددًا من مجلة «روز اليوسف» المصرية حول الموضوع. كيف رسموني فيها؟.. رسموا رجلا عملاقا مع شاربين كبيرين وحطة (كوفية) وبندقية أكبر من الرشاش تحت إبطه. ولكن هذا ليس سميح القاسم؛ هذه صورة نمطية.»

● هكذا يريدون أن يرونا..

سميح القاسم: «هكذا يريدون أن يرونا. محمد دكروب مثلا صُدم عندما تعرّف بي. قال: أنت سميح القاسم؟... غير معقول. أنا أتخيلك ماردًا عملاقًا بأربعة أمتار. قلت له: وأنا كنت أتخيلك كابن رشد، فلا أنت ابن رشد ولا أنا بمارد. الحياة أكبر من الصّورة النمطية. وتصوير شاعر المقاومة بأنه مقطب الجبين دائمًا وخلف المتراس أمر غير صحيح. هذه ليست شغلته. هناك مقاتل وهو مكمّل للشاعر. والشاعر يكمل المقاتل.

«وفي ثقافتنا خجل غير مبرّر من الجنس، والتعامل معه في الأدب غوغائيّ جدًا. حتى الذين كتبوا كانت كتاباتهم غوغائية تهدف لإظهار فحولتهم. هذا جنس متخلف، وللأسف الشديد، كان العرب من أكثر شعوب العالم الذين قدموا من خلال الكتب الموضوعة والترجمات، أرقى ما يكون في هذا المجال. تعاملنا مع الجنس في الماضي أرقى من اليوم. ما المانع أن يضع كاتب أو شاعر مشهدًا جنسيًا راقياً؟»

● ومع يهودية؟

سميح القاسم: «طبعًا، لمَ لا؟ مع يهودية أو عربية أو سوداء.. لماذا نقع في التناقض؟ إما أننا عنصريون وإما أننا عرب أمميون. العنصرية والعروبة لا تستويان. من يقول لي: سأذبح اليهود وأذبح الإنجليز والأمريكان باسم العروبة أقول له: حلّ عن ظهر العروبة! هذه ليست العروبة. هل تعتقد أنّ الرسول عاشر يهودية وقبطية وغيرهما من أجل المتعة فقط؟.. هذا درس للناس وللمجتمع، للعرب وللمسلمين.

في الماضي جرّبوا أيضًا مهاجمة محمود على قصائده عن ريتا وحبيبته إيريت»

- تكتب في «ملعقة سم» أيضًا: «الحب، في المحصلة، هو الطاقة العظمى، هو القيمة العليا في المعنى والفعل والتحوّل... وبمقدور القوة الطاهرة، قوة الحب اللانهائية، كالله، أن تكفل انتصار السنابل والأزهار والعصافير». هل نسينا في صراعنا الطويل أن نحبّ على مستوى الأدب والمسرح والفنون؟ الحبّ ليس حاضرًا لدينا بكثافة.

سميح القاسم: «أنا معك في ذلك. والسبب هو تعرضنا لإرهاب فكريّ وسياسيّ واجتماعيّ. المبدع الذي ينحني للمفاهيم السياسية السّطحية والاجتماعية المتخلفة والدينية المتحجّرة، يهرب من الحقيقة. أنا لا أهرب من الحقيقة. لا يهمّني أن أدخل في معركة مع مجتمع أو بيئة، لأنني على حقّ. أنا أمارس حريّتي مع عواطفي ومع جسدي فهذا حقي أنا، وليس من حق إنسان آخر أن يتدخل.»

- وربما نكون قد شاركنا أيضًا في هذا..

سميح القاسم: «نحن شاركنا في هذا! وتواطأنا مع هذه الصورة المشوّهة التي أساءت لنا. كنت مسافرًا مرة من أوريغون إلى تكساس. إلى جانبي في الطائرة جلس شاب أمريكي ببدلة وقبعة تكساسية. بادر إلى الحديث معي، وسألني من أين أكون. قلت: فلسطين. قال متعجبًا: فلسطين؟.. ليس إلى كوبا!! لقد اعتقد أنني هناك كي أختطف الطائرة. قلت له: أنا لست هنا لاختطاف الطائرة، أنا شاعر آتٍ لأقرأ الشعر في تكساس للجالية العربية. لم يصدق أنّه بوسع الفلسطيني أن يكون شاعرًا. ثم جاء وحضر الأمسية الشعرية هو وأصدقاؤه. نحن شاركنا في خلق صورة غير دقيقة عنا. ترى رساما فلسطينيا يرسم فنا تجريديًا فيتساءلون: هذا فلسطيني؟.. نعم، فلسطيني ويرسم فنا تجريديا. ماذا تريد منه؟.. يقولون: عليه أن يرسم البندقية والخندق... لا هذا غير صحيح أبدًا. أنا دائمًا أعطي مثال لويس أراغون الذي كتب عن صاحبته إلسا وهي تمشط شعرها أمام المرآة أجمل قصائد شعر

المقاومة الفرنسية. بقصائد الحب هذه جُند الكثير من الفرنسيين للدفاع عن فرنسا. مفهومنا لشعر المقاومة غير دقيق.

«كنت مرة في أبو ظبي في أمسية شعرية. جاء الحضور وطلبوا أن يسمعوا قصائد يريدونها، فرفضت وقلت سأقرأ لكم ما أريد أنا. قالوا: نريد «ليلى العدنية» و«أتحدى» و«سأقاوم» و«منتصب القامة أمشي»... قلت لهم انسوا كل هذا الموضوع. أنا أصدرت كتابًا جديدًا اسمه «كولاج» وسأقرأ منه. إذا أعجبكم أهلا بكم وإذا لم يعجبكم يمكنكم أن تذهبوا. قرأتُ لهم؛ وفي اليوم التالي كتب أحدهم: هذا ليس شعر سميح القاسم!

«كنا أنا ومحمود، رحمه الله، نقيم أمسيات شعرية كثيرة مشتركة. ونجلس محتارين قبل الأمسية، ماذا سنقرأ. فيقول محمود: تعسًا! لا بد أن يطلبوا منك «سأقاوم» ولا بد أن يطلبوا مني «سجّل أنا عربي». فنختار سوية القصائد على شكل حوارية في الشعر. في بعض الأقطار لم يتحمّسوا كثيرًا، وبعد أن ننتهي يطلبون «سأقاوم». هناك نمطية ولكن علينا أن نكسرها، وأعتقد أنني نجحت في كسر هذه النمطية. في أمسياتي في مصر والمغرب وتونس وسوريا كنت أقرأ قصائد حبّ قصيرة. فشعرت بوجود تفكيك لهذه الصورة النمطية.»

- قد تكون أنت ومحمود من أكثر الشعراء الذين طوّرا ذائقتيهما وذائقة الجمهور أيضًا.

سميح القاسم: «قد تجد ٢٠٠٠ شاعر عربي كتبوا لفلسطين على الأقل. لا تغضبوا منا. لا تلومونا إذا أحبّ الجمهور شاعريْن وانسجم معهما. نحن لم نخطئ. لقد تعاملنا مع الجمهور بصدق. في ذكرى شوقي في الإسكندرية قرأت قصيدة حبّ عن الموبايل: «هاي/ لموبايلك الحلو/ نقالك الحلو/ جوّالك الحلو/ أشرح أسباب موتي عليك/ وبالفاكس أرسل قلبي إليكِ/ باي.» قرأتها فدوّى التصفيق ووقف الجمهور على قدميه. وبعدها قرأت لهم ملحمة شوقي. فأنت تفرض حالة إنسانية تضع الشاعر في مكانه الطبيعي بأنه إنسان وليس جنديًا أو إلهيًا.»

- أن تنتقل من قصيدة الموبايل إلى ملحمة شوقي يحتاج إلى ثقة كبيرة بما يكتب.

سميح القاسم: «أنا أجري اختبارًا على الجمهور. أقرأ قصيدة المتنبي وبعدها قصيدة «ميكرو ويف» مثلاً وأرى ردود الفعل. واكتشفت بمرور الوقت أنّ الجمهور يحبّك ويتعاطف معك ويكتشفك أكثر. ثم يقترب منك أكثر فتصير بالنسبة له إنسانًا وليس رجلا آتيًا من الفضاء الخارجي ومنقطعًا عن الجمهور، يقرأ القصيدة ويذهب. عليك أن تُشعرهم بأنك واحد منهم، وهذا ليس سهلا.»

- إذا كان شعر المقاومة هدفه إعادة الإنسانية إلى الناس فهو لن ينتهي أبدًا. هل ترى أنّ هناك من يكمل هذه المسيرة؟

سميح القاسم: «لن ينتهي أبدًا. طبعًا. وأنا مستمرّ في هذا. ولكنها حالة يجب أن تستمرّ. أنظر إلى كمّ الضحالة.. بعد أوسلو بدأوا بكتابة المقالات عن نهاية شعر المقاومة وما جدوى ومبرّر شعر المقاومة؟.. يأتي صحفيون لسؤالي، فأقول لهم: «معلش خيا»، هل تحرّرت فلسطين في أوسلو؟ هل تحرر لواء الإسكندرون والأحواز وأوغادين؟.. كلها ما زالت تحت الاحتلال. هل أنهى أوسلو جموح الإنسان لكرامته وإنسانيته وحقوقه وحضارته؟ ما هذا الهبل؟ ما هو أوسلو؟ وأنا أقول دائمًا: حرّروا جميع الأراضي المحتلة واشطبوا اسمي وشعري من الوجود بالكامل. في هذه الحالة يكون ما أريده قد تحقق.»

- بعد بيروت ٨٢ والخروج نشرت عدة دواوين بحالة حزن عميق. هل اهتزت عروبتك وقتها؟

سميح القاسم: «لا. لكن ما أحزنني أنّ فهمي للعروبة لم يتحقّق على مستوى الأمة. وحتى الآن لديّ فهم ورؤيا للعروبة... أنا أشعر بالإهانة عندما تحضر هيلاري كلينتون اجتماعًا لوزراء الخارجية العرب. في لقاء لي لبرنامج «زيارة خاصة» على قناة «الجزيرة» قلتُ لمقدّم البرنامج الذي أستفزّني قليلا: اسمع، إسرائيل لم تُقم لسرقة أرض فلسطين ولا لطرد الشعب الفلسطيني ولا لإجلاء الأمة العربية؛ إسرائيل

أقيمت لهدف واحد فقط: إغاظة سميح القاسم!»

اكتب لي قصيدة

النساء. القصص كثيرة حول القاسم ودرويش في هذا السياق. رُويت الكثير منها وضُخّمت بعضها وبولغ في بعضها حتى غدت جزءًا لا يتجزّأ من هالة الشاعرين وحضورهما.

- هل يمكن أن تكون شاعرًا حقيقيًا من دون أن تكون دون جوان؟

سميح القاسم: «لا أعرف ما الوضع بالنسبة للآخرين، ولكن بالنسبة لي لا يمكن. هناك ارتباط واضح قطعًا. العلاقة بالنساء، والطبيعة، والأنهار، والبحيرات، والجبال مثل السّفر، وإلا فإنّ الحالة تكون غير إنسانية. الدون جوانية ليست خروجًا على الإنسانية. الخروج على الإنسانية هو قمع الجّسد. لي قصيدة قديمة أقول فيها «أعينوا الجّسد». لا تقمعوه. ولا أريد أن أستعمل مصطلح «دون جوان» لأنه لم يكن شخصية طبيعية بل كان مريضًا.»

- هل هناك تأثير لهالة الشاعر على المرأة؟

سميح القاسم: «أكيد... هناك تأثير للشاعر والفنان...»

- أي أنك تأتي المرأة على جناح القصيدة؟

سميح القاسم: «لا، هي قد تأتي إليّ على جناح القصيدة. وأنا رأسًا أنزلها إلى الواقع: ضعي الشاعر جانباً، نحن رجل وامرأة. وهناك الرومانسيات والرومانسيون طبعًا. فدوى طوقان رحمها الله كانت تحكي عن شباب يأتون إليها متيّمين بها، وكانت تضحك بخجل: قرأ لي قصيدة فصار يريد أن يحبّني. من الطبيعي أنّ كل إنسان يُنجز مشروعًا ما متميزًا يمكن أن يكون موقع جذب للنساء، حتى لو لم يكن

جميلاً.»

- ولكن الطمع في حالة الشاعر أكبر.. فهي تريد أن تخلدها بقصيدة أو بيتي شعر.

سميح القاسم: «طبعًا، طبعًا، وهذا يدخل الشاعر في ورطات وورطات. «أكتب لي قصيدة»، تقول. أسألها: لماذا؟ ما المناسبة؟ هذا طلب فيه شيء من الوقاحة. هل القصيدة جاهزة تنتظرك؟ وكأنني نجار أصنع لها كرسيًا.»

- هل أثرت علاقاتك مع النساء تأثيرًا تراه ملموسًا وحاضرًا في حياتك اليوم؟

سميح القاسم: «لم تكن لديّ أزمة علاقة مع النساء منذ طفولتي. أنا نشأت في مجتمع منفتح وغير ذكوري والاختلاط فيه عاديّ ومألوف. ولم يكن حضور المرأة يومًا في حياتي استثنائيًا أو مثيرًا مثلما كان المرحوم صديقي الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي يقول: «كنا عندما نسمع حفيف عباءة امرأة نُجنّ!» ومن جهتي، من الطبيعيّ أن يكون لهذه العلاقات تأثير في حياتي وقصيدتي وسلوكي. ولكنني لم أتعامل يومًا مع المرأة باعتبارها ملاكًا أو باعتبارها شيطانًا. بعض الشعراء صنعوا منها ملاكا والبعض الآخر شيطانًا. هي إنسانة مثلي تمامًا: فيها الملاك وفيها الشيطان.

«أعتقد أنّ العلاقة مع المرأة عند كلّ رجل مرتبطة بالبيئة التي وُلد ونشأ فيها. وبيئة الفصل الحادّ بين النساء والرجال هي بيئة مريضة برأيي وتؤدّي إلى انحرافات جنسية عند الرجال وعند النساء. البيئة المغلقة هي بيئة الانحرافات– هذه قاعدة، وأقولها وأمري لله. البيئة المنفتحة إنسانية أكثر وطبيعية وجميلة أكثر.»

- هل صحيح أنّ كتاب غسان كنفاني كان تذكرة للدخول للعالم العربي بالنسبة لشعراء الداخل؟

سميح القاسم: «لا. لا تؤاخذني. غسان رحمه الله أسهم بلا شك في ترويج شعر المقاومة. لكن كان هناك كاتب اسمه إبراهيم أبو ناب كتب دراسة قبل غسان (عام ١٩٦٦، مجلة الآداب). ولا ننسى يوسف الخطيب وكتابه «ديوان الوطن

المحتل» (١٩٦٨) الذي كانت له أصداء ضخمة. وغنوا قصيدتي «ما دامت لي من أرضي أشبار» وكانوا يقدمونها يوميًا في «صوت العرب» عام ١٩٦٦ قبل الحرب. مسلسل إذاعي عني في صوت العرب بُث أيضًا قبل الحرب. واكتشفتُ أنّ مجلة الجيش السّوري بدأت تنشر لي منذ ١٩٦٥. ومع ذلك لا أنسى دور غسان. وأذكر عندما سافرنا محمود وأنا إلى صوفيا عام ١٩٦٨ وجاء صحفي من الكويت وادّعى كذبًا أن شاعري المقاومة يحملان العلم الإسرائيلي، تصدّى لهم غسان وقال لهم: لا تتمادوا على جناحي شعر المقاومة. ودافع عنا ببسالة.»

- تحضرني مقولة «يوما ما سأجد الكلمات الصحيحة وستكون كلمات بسيطة»... هذا الموتيف موجود في شعرك ونثرك، هناك سهل ممتنع وليس هناك بحث عن إعجام وتفخيم. بساطة ذكية... ولكن في «سبحة للسجلاّت» وما بعدها طرأ نوع من التركيب مقابل البساطة السابقة...

سميح القاسم: «أنا لا أسميه لا تقدّمًا ولا تأخرًا، أسمّيه تغيّرًا وتجدّدًا. وهذا شيء طبيعيّ. لا يجوز أن نطالب شاعرًا أن يكتب في السّبعين ما كتبه وهو في الثامنة عشرة. الثقافة والتجارب تختلف. هناك الخبرة والتثقيف والخيبات.. كما أننا مبعثرون كبشر، نفكر في أكثر من أمر واحد في ذات اللحظة. ممنوع أن نتمرّد على تكويننا الإنسانيّ، هذه البساطة الصعبة. لا يوجد أصعب من السّهل الممتنع. هذا أصعب أنواع الكتابة.»

- وماذا مع الجيل الذي نشأت معه غير محمود درويش. هل كانت حالة ثقافية ومداولات في الستينيات والسبعينيات؟

سميح القاسم: «دائمًا. أعتقد أنّ حركتنا الثقافية وصلت أوجها وقتها. «الجديد» تحولت إلى نادٍ ثقافيّ، وكان معنا كتاب غير حزبيين أيضًا يكتبون، وفتحنا الأبواب حتى مع المختلف. عمّمنا مفهوم التعددية والحوار، وأصبحت مجلة «الجديد» ناديًا يأتي إليه الجميع، وصارت منتدى للشعراء والأدباء والمفكرين للنقاش والحوار.»

- وعملية التأثر هل كانت مع شعراء آخرين غير درويش؟

سميح القاسم: «هذا كان بيني وبين محمود فقط، لأننا كنا نسكن في نفس الدار أو كنا جيرانًا ونلتقي يوميًا ونسهر ونقرأ لبعضنا البعض. كنا نعمل في نفس المكان، ونقابل نفس النساء، ونأكل في نفس المطعم، ونقبع في نفس السّجن. حياة مشتركة أدّت إلى هذه التأثرات.»

- ما يشبه الكومونة.

سميح القاسم: «صحيح. بالضبط. أحيانًا يجوع واحد منا فيقوم أصدقاؤه بتوفير العشاء له، حتى لو لم يكن معهم الكثير.»

- وضعكم أفضل من وضعنا اليوم بكثير.

سميح القاسم: «من الناحية الاجتماعية والإنسانية– أكيد. لكن وضعكم الاقتصادي أفضل من وضعنا وقتها بمائة مرة. نحن كنا فقراء بكل معنى الكلمة ونجوع حقًا. وكان لدينا نوع من المكابرة؛ فأهلنا وضعهم جيد وعندما آتي إلى الرامة يعرض أبي وأمي النقود علي فأنتفض: أعوذ بالله! الحزب يعطيني معاشًا ممتازًا، بينما أكون قد صرفت ثلاثة معاشات سلفًا. ومحمود نفس الشيء. قبلنا الحياة كما هي وتمرّدنا عليها كما هي، بلا مبالغات.»

عرفات وعبّاس: منْ أكثر دهاءً؟

- كشاعر مقاومة، كيف كانت علاقتك بياسر عرفات، عبر تأسيس المنظمة وولادة قيادة فلسطينية، وأنت هنا في الجليل؟ من هو هذا الرجل برأيك؟

سميح القاسم: «ياسر عرفات كان إفرازًا طبيعيًا لحالة شعب تحوّل إلى لاجئين ومضطهدين. طبيعة التاريخ تفضي إلى إفراز شخص يقول لا نحن لسنا لاجئين، نحن شعب. ونحن لدينا وطن وقضية. صحيح أنّ هناك من تكلم في هذا قبل عرفات مثل أحمد الشقيري، لكنّ القضية الفلسطينية كانت قبل عرفات جزءًا من

اللعبة السياسية العربية والدولية. فإذا كان نظام معين راضيًا عن الشقيري يستقبله وإذا لم يكن راضيًا عنه يطرده. في عهد ياسر عرفات تحوّل الوضع إلى قيادة خاصّة فلسطينية من دون الانقطاع عن عُمقها العربيّ. وأنا لا يمكن أن أقبل أبدًا بالتنازل عن عمقنا العربيّ. القضية الفلسطينية هي قضية عربية في النهاية، وياسر عرفات أخرج القضية الفلسطينية من الحيّز العربي إلى الحيّز الدوليّ. أصبحت قضية وطنية بشكل بارز وقضية قومية للعرب وقضية دولية. وبغضّ النظر عن تفاصيل الموقف العرفاتي، والثغرات التي يمكن أن نجدها في موقفه، إلا أنّ الخلاصة تبقى أنّ عرفات هو القائد الفلسطينيّ الأول الذي بلور القضية على المستوى الوطني الفلسطيني، والقومي العربي، وعلى مستوى العالم الإسلامي. فهو نجح في تحويل القضية الفلسطينية إلى جزء من الهمّ الإسلامي عبر منظمة المؤتمر الإسلامي.»

- لكن البعض يقول إنّ انتهاء كل هذا باتفاق أوسلو هو أمر سيئ.

سميح القاسم: «بعد أوسلو طلبت مني مجلة «المصوّر» المصرية أن أكتب مقالاً، فكتبت مقالا فيه حزن وقرأه أبو عمار. بعدها كنت في المغرب، وقرابة الواحدة صباحًا جاء شباب إلى الفندق وقالوا إنّ الأخ أبو عمار يرغب برؤيتك. فتفاجأت أصلا أنه يعرف بوجودي في المغرب. قال لي: قرأت مقالك، «ليش انتو زعلانين»؟ قلت له: من تقصد بأنتم؟ أنا كتبت مقالا باسمي أنا. قال: المثقفون الفلسطينيون. قلت له: أنا لا أحبّ المزايدة ولن أزايد عليك، أعرف أنّ ظروفك غير ظروفي، أنا شاعر وحرّ وأنت تعمل في السّياسة ولك حدودك وقيودك. لكن مساحة ما أُعطِي لشعبنا في أوسلو أقلّ من مساحة الدم الفلسطيني الذي سُكب. دمنا أوسع من أوسلو. وأنا لديّ على الأقل ١٠ نقاط حول أسباب اعتراضي على أوسلو. فقال: وأنا سأعطيك عشرة أسباب أخرى! قلت له: أبو عمار أنت ذكيّ وليس من السّهل الحوار معك. ولكن إذا كنت ستعطيني عشرة فوق العشرة فماذا تبقى؟ فقال: لماذا تسألني أنا؟.. إسأل عربك واسأل الوضع الدولي. لقد تُهنا. ماذا تبقى لنا في أيدينا؟ أيّ أوراق نحمل نحن؟.. وفعلا كان وقتها انهيار الاتحاد السوفييتي والوضع في العراق وغيره.

لم يكن بأيدي القيادة الفلسطينية أيّ شيء.

«الإسرائيليون ليسوا سهلين، لا في سياق الكلام القديم عن قتل الأنبياء وغيره، ولكنهم ليسوا سهلين في الحوار السياسيّ. لديهم مشروع ويعملون في إطاره ويلفون ويدورون ويرجعون إليه. في المقابل، لم نكن نحن نملك مشروعًا واضحًا. كنا نقول «التحرير والعودة». لكنّ هذا شعار، وليس مشروعًا بتفاصيل: كيف نحرّر وكيف نعود؟ لم يكن خطة عمل، كان حلمًا فقط.»

- لنتحدث عن الوضع اليوم مع محمود عباس، والانشقاق مقابل حماس ووضعية المفاوضات اللانهائية، ومستوى القيادة التي لا ترقى لمستوى عرفات... يجوز أنه رغم حصار بيروت، وأيلول الأسود، فإننا نمرّ اليوم أصعبَ فترة في تاريخ الشعب الفلسطيني: لا قيادة، لا طريق، لا وحدة، شعب ضائع...

سميح القاسم: «أنا لا أحكم على محمود عباس من خلال كلامنا، بل حسب ما يرى فيه الإسرائيليون وأمريكا والعالم. بهذا المعنى، يتضح أنّ عباس أكثر دهاءً من أبي عمار. فأبو عمار كان عندما لا يعجبه أمر ما يضرب على الطاولة ويقول: «خلاص! مفيش!» أما عباس فلا يضرب على الطاولة، بل يقول: أنا أريد مصالحة «حماس» ولكنني لن ألغي المفاوضات. المفاوضات والحلّ السلميّ إستراتيجية لدينا. مصالحتي مع حماس من أجل هذه الإستراتيجية. من يُجنّ من هذا؟ نتنياهو. لدرجة أنّ نتنياهو في لقاء مع قادة اليهود في الولايات المتحدة قال لهم: أخطر عربي على إسرائيل اليوم هو محمود عباس. لماذا؟ لأنه يمسك بهم في عنقهم ولا يتركهم. يتحدّث عن المفاوضات والحلّ السلمي. عباس أكاديميّ وباحث، وهو يعرف ما العقل الصّهيوني، ويتعامل معهم ببرود وهذا يبعثهم على الجنون. يريدونه أن يقول: أريد حماس ولا أريد السّلام معكم، لكنه لا يقول هذا. ثم يقول خالد مشعل بذكاء كبير: نحن أوقفنا الكفاح المسلح ونحن الآن سننتهج المقاومة الشعبية. هذا ذكاء خارق أيضًا.»

- لكن هناك قطاعات وحركات سياسية غير قليلة ترى أنّ هذا النهج غير صحيح. نحن بحاجة إلى المقاومة الشعبية، وحلّ السلطة الفلسطينية، ووقف المفاوضات العبثية.

سميح القاسم: «أمر طبيعي، فنحن الشعب الفلسطيني، نحن لسنا قطيعًا. نحن لسنا شعبا شموليا، يطيع الزعيم بشكل أعمى. نحن شعب حيّ وحرّ مثل كل شعوب العالم ولدينا تعدّدية. عندنا فتح وحماس والشعبية والديمقراطية وحزب الشعب وحركات أخرى كثيرة، وهذا دليل عافية وليس دليل مرض. التعدّدية الفكرية والسّياسية والإيديولوجية لدى الشعب الفلسطيني هي دليل عافية. أعرف أنّ هناك من يقول إنكم شعب ممزّق. لا، لسنا شعبًا ممزقًا، هذا هو الأمر الطبيعيّ. أنظر إلى شعوب العالم، أنظر إلى اليهود هنا. في داخل حزب الليكود تجد فيغلين ومريدور وتيارات أخرى. وأنا ضدّ أن يقتصر الحوار الفلسطيني ـ الفلسطيني بين فتح وحماس. أنا أصرّ دائمًا على أن تكون الشعبية والديمقراطية وحزب الشعب في صلب الحوار. لا نريد حزبًا جمهوريًا وحزبًا ديمقراطيًا [كما في الولايات المتحدة]

- إذًا فأنت لا ترى الوضع قاتمًا.

سميح القاسم: «لا، لا ليس قاتمًا. لكنني أرى أنّ الوضع معقد جدًا. ولكن مهما يتعقد الوضع ففي المحصلة نحن موجودون بين البحر المتوسط ونهر الأردن. موجودون بكثافة ونزداد ولا مفرّ أمام الصهيونية: إما دولة ثنائية القومية وأهلا وسهلا، وإما دولتين لشعبين. لسنا نحن المحرَجين. نحن في صراع منذ مئة سنة ولا ضير لو استمرّ الصراع مئة سنة. ماذا سيجري لنا؟»

- تكتب في مطلع سربية «عجائب قانا الجديدة..»: «أنا كفٌّ يدْ / فقدت يديّ، فقدتُ الجّسدْ / أنادي. أنادي. وما مِن أحدْ / أنا كفّ يدْ / وعمري ثلاثُ سنينْ / تكسّرَ عظمي القليلْ / وضاعَ فمي في الرّكام الثقيلْ...». هذا الحزن في هذه السّربية، كيف يستوي مع البراغماتية التي تحلَل بها الوضع؟ تكتب بحزن عميق

وتحلّل ببرودة كبيرة.

سميح القاسم: «أنا تابعت العدوان على لبنان يومًا بيوم وساعة بساعة ودقيقة بدقيقة. ورأيت دمى الأطفال وأيدي الأطفال والبيوت المدمرة ورأيت الختيار الذي نُسي في البيت وجاءت ابنته تبحث عنه في البيت. رأيتها وعشتها. كانت هذه السربية التعبير العفوي عن الذي رأيته. لكن هذا مردوده كما أرى تعميق الوعي العربي بضرورة المقاومة. كفّ الولد المقطوعة والدمية المرمية بين الأنقاض، هذه ليست دعوة يأس بل دعوة مقاومة مثل كلّ السربية، من خلال إظهار بشاعة العدوان وحقارة المعتدي. لا أريد أن أصور المقاتل البطل والشجاع فقط، بل أريد أيضًا تصوير الجثة والطفل. وأحيانا تختلط المقاومة مع البشاعة والفظاعة: «رأيت رأي العين/ مقاتلا في العاشرة/ يمشي بلا ساقين/ ووجهه للناصرة». رجلاه مقطوعتان لكنني لست كاميرا أصوّر فقط، بل أنا شاعر أصوّر وأعبئ وأشحن. هذا الولد سيمشي بلا ساقين ووجهه إلى بلده ووطنه.

«وبالنسبة لقضية الحوار السياسي، قلتها من قبل: قصيدتي لا تفاوض، قصيدتي لا تعرف الخرائط.. أين ٦٧ و٧٣. قصيدتي لها وطن، الوطن كله. لذلك قصيدتي لا تقف عند الحاجز، «المحسوم». أنا أقف عند «المحسوم» لكن قصيدتي لا تقف. تتجاوزه غصبا عن الجيش الإسرائيلي والاحتلال والأمم المتحدة والعالم كله. هي حرة، تتنقل كما تشاء. يستطيعون منعي من دخول بلد، لكن لا يستطيعون منعها. يافا وطني ورام الله وطني، القدس وطني والرامة وطني، الجش وطني وبئر السبع وطني. الاتفاقيات لا تعني لي شيئا في الشعر. لكنني لست شاعرًا فقط، أنا رجل سياسة أيضًا. والرجل السياسي يدخل في مواجهة مع الشاعر.»

- انفصام أو ازدواجية؟

سميح القاسم: «لا، لا أبدًا. الازدواجية والفصام هما أمران سيكولوجيان إكراهيان. أنت تُصاب بالفصام كمرض، لكن في حالة الشّاعر والسياسيّ الأمر يكون بوعي كامل. هذه ليست حالة مرضية. أعرف ما تريده القصيدة، ولكن السّياسي

يعرف أيضًا أنّ ما تريده القصيدة يواجه حواجزَ ودباباتٍ وسلاحَ جوّ وجيشًا وصراعَ مصالح ودولاً. إذا تجاهلت الواقع السياسي في العالم والمنطقة أصير شاعرًا رومانسيًا أهبلَ. أنا منخرط في الحياة السياسية لشعبي، ولذلك إلى جانب القصيدة أعطي أيضًا فرصة للحلّ السّياسيّ المرحليّ. فكلّ الحلول السياسية بالنسبة لي مرحلية. أصلا إذا قامت الدولة الفلسطينية فهل يعني هذا النهاية؟ لا، هذه مرحلة. الحلّ النهائيّ لدي هو دولة عربية ديمقراطية كاملة من المحيط إلى الخليج. هذه رؤيتي السّياسية والشعرية، وبحق وهذا ليس مستحيلا وثورات الربيع العربي أكدت لي أنّ كل الأمة العربية تعيش على هذا الحلم.»

بلاد العُرب ثوري

- لكن العقدة الأكبر اليوم سوريا، بحكم موقعها في تيار الممانعة.

سميح القاسم: «أتركني من تيار الممانعة. قضية المقاومة والممانعة وأنّ ما يحدث مؤامرة عليهما، هذا كلام لا يسري لديّ. من قال إنّ المقاومة والممانعة ضدّ الديمقراطية؟ بالعكس تمامًا: الديمقراطية تجعل المقاومة والممانعة أقوى وأشدّ وأعمق. لا يجوز باسم الممانعة أن يحكم حزبٌ واحد سوريا. لا يجوز. هذه لم تعد مقاومة، هذا استعمال شعار المقاومة والممانعة لإسكات الشعب. «لا صوت يعلو على صوت المعركة». ولكن لا توجد معركة؛ أين المعركة؟ أنا أعرف محاذير القيادة السورية في مواجهة إسرائيل، ولكن نحن نتكلم منذ ٤٠ سنة عن المقاومة والممانعة ولا توجد مقاومة. ماذا تعني الممانعة؟ مفاوضات؟ لقد حدثت بالفعل بين المرحوم حافظ الأسد وإسرائيل. من قال إنّ المقاومة والممانعة تعنيان قهر الشعب ومنع الديمقراطية؟ بالعكس. التعدّدية تجعلهما أقوى وأصدق وأكثر تجذرا في الشعب.»

- هذا ناهيك عن وطنية الشعب السوري وأنه لن يصبح عميلا للغرب.

سميح القاسم: «لا، أبدًا. نتيجة لتربية تاريخية، ومن أيام الثورة على العثمانيين، سوريا تصدرت وقدمت شهداء علقوا على المشانق في دمشق وبيروت وعكا. بلاد

الشام تاريخيًا فيها الزخم القومي وهذا الزخم تُرجم للممارسة. سوريا المسلمة السنية كان لها رئيس حكومة مسيحيّ، وفيها وزير أوقاف مسيحيّ! سوريا المسلمة السنية منحت قيادة ثورتها الكبرى لسلطان باشا الأطرش الدرزيّ. سوريا المسلمة السنية أعطت قيادة الثورة في مرحلة معينة للعلوي صالح العلي. ليست هناك مشكلة دين ومذهب لدى الشعب السوري. الإنسان يُحاسَب على موقفه وآرائه وتصرّفاته. أنا لست خائفًا. يُخوّفون المسيحيين والدروز والعلويين بأنّ الأصوليين سيستلمون الحكم ويقومون بالمذابح ضدّهم. ولكن هذا الكلام افتراء وتزوير على الشعب السوري. أديب الشيشكلي صنع انقلابًا وأرسل طيارات ودبابات تضرب جبل الدروز. اختلفوا معه. قالوا له أنت عميل أمريكي، لا تهمك فلسطين ولا سوريا. من تمرّد ضدّه؟ حلب السنية ودمشق السنية. حلب هبت هبة رجل واحد وهدّدوه بالهجوم على دمشق. ثم أسقطوه وطردوه من البلاد. أنا لست خائفًا على الشعب السوري رغم وجود أصوات «سفلية» تحرض: الكفار الشيعة، الكفار العلويين، النصارى، الإسماعيليين... لكن هؤلاء ليسوا الشعب السوري. وإذا نجح الإخوان المسلمون باستلام الحكم فليكن.»

- ماذا سيحدث برأيك في الثورة السورية في ظلّ تصادم القوى العالمية؟

سميح القاسم: «استمرار النظام غير وارد بالحسبان. لم يعد أيّ مبرر لبقائه في الحكم بعد آلاف الضحايا، رجال ونساء وأطفال. هل تتخيل الدبابات الإسرائيلية تضرب كرميئيل؟ هل يمكن تخيّل هذا؟ ما يحدث أمر لا يقبله العقل. كيف يمكن لجيش عربيّ سوريّ له تاريخه يحاصر حمص وحماة ويحرق ويضرب ويقتل ـ كيف؟ أين العروبة؟»

- في نظرة إلى الوراء، هل أنت نادم على علاقتك مع النظام في سوريا؟

سميح القاسم: «أبدًا. أصلاً، في بداية العلاقة أنا كتبت أقسى نص يمكن أن يُكتب ضد زعيم عربي. كتبته ضد حافظ الأسد بعد مذابح تل الزعتر ونهر

البارد في لبنان. ووصفته بمقولة «حافظ كوهن» [على غرار إيلي كوهن، الجاسوس الإسرائيلي في دمشق] ولا أتصور أنّ عربيًا آخر كتب مثل هذا الكلام عن رئيس عربيّ. والعراقيون نشروا المادة وعمموها إلى أن أتاني اتصال من باريس. شخص يقول: أنا مدير التلفزيون السوري، السيد الرئيس يريد أن يراك. أهلي قالوا لي إنّ مصيري سيصبح مثل مصير الصدر [الذي اختفى بإيعاز من القذافي] إذا ذهبت، قلت لهم: أنا لست الصدر، وحافظ الأسد ليس معمر القذافي. وذهبت للقائه. قال لي: لا يوجد ضابط سوري لا يحفظ شعرك، وأنا أحفظ شعرك أيضًا. نحن نعتبرك شاعرنا القومي، ولديك معلومات خاطئة عما حدث في لبنان. وشرح لي وجهة نظره وقال لي اسأل أبا عمار. سألته واتضح أنّ الكثير مما قاله حافظ الأسد صحيح.»

- مثل ماذا؟

سميح القاسم: «أنه وفر معسكرات تدريب للمقاتلين الفلسطينيين في سوريا التي تحملت كل النفقات. بعد فترة ضُبطت مجموعة من الذين تدرّبوا في هذه المعسكرات، كانت قادمة لاغتيال الأسد. سألت أبا عمار فقال هذا صحيح ولكنني لست من أرسلهم. مع كل ذلك فإنّ هذا لا يبرئ النظام السوري بالمرة».

«لا، لست نادمًا على علاقتي وصداقتي. أنا آسف أنّ هذا النظام يسقط، لأنه قوميّ وعلمانيّ وتقدميّ ومقاوم، ولكن هذا لا يكفي. الشعب السوري له حق عليّ، برقبتي، ألا أخونه. الشعب السوري ثار من أجل حقوق مشروعة. وأنا نبّهت النظام أكثر من مرة في لقاءات شخصية وكتابات ورسائل، ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟

«أنا حصلت على ثلاث دعوات شخصية للعراق، للمربد، أيام صدام، وكان الجواهري والبياتي يقولان لي: هل ستذهب من دوننا؟ لم أذهب. أنا متضامن مع الشعب. في السنة الأخيرة وصلتني أكثر من دعوة من السودان عبر وزارة الثقافة. رفضت أن أذهب لمباركة تقسيم وتضييع جنوب السودان. أنا أتهمكم بتضييع جنوب السودان. لم أذهب. علاقتي بأيّ نظام محكومة بعلاقتي بالشعب أولاً.»

● لا زلت أذكر لليوم صورك أثناء زيارتك لمخيم اليرموك في سورية...

سميح القاسم: «نعم. الشعب هناك، بلا مؤاخذة، حملني على الأكتاف سبعة كيلومترات. شعبنا الفلسطيني. كان عرسًا. وحضر جورج حبش، وأبو علي مصطفى، وأحمد جبريل، ونايف حواتمة، كل القيادات الفلسطينية التي كانت في سوريا شعرت بانتعاش من جولتي في سوريا.»

تفاصيل الشاعر

● من بين ٦٠–٧٠ إصدارًا لك حتى اليوم، هل هناك كتاب أو ديوان هو الأحبّ لديك؟

سميح القاسم: «لا. كلّ مجموعة وكتاب صدر في مرحلته وكان له دوره في تلك المرحلة. وتجد شعراء مثلا يصدرون الأعمال الكاملة، ويتجاهلون المجموعة الأولى. أنا لم أتجاهل مجموعتي الأولى «مواكب الشمس»، مع أنها كانت ساذجة من ناحية فنية. قصائد كتبها ابن ١٢ و١٣ و١٥ عامًا، من الطبيعي أن تكون فيها سذاجة لكن أجد فيها صدقًا وعفوية لم أتنازل عنهما. واكتشفت أيضًا أمورًا مثل قصيدة «ليست جميلة»، ساذجة ولكن فيها شيء خاصّ.. كان أبناء جيلي جميعهم يتغزلون ويبحثون عن المرأة الجميلة، ولكن شابًا في السابعة عشرة من عمره يقول لهم: وما لها غير الجميلة؟ هي إنسانة أيضًا ومن حقها أن تُحِب وتُحَب. هذه القصيدة لفتت نظري لاحقًا ربما بعد خمسين عامًا، رغم أنني كتبتها وعمري ١٧ عامًا ولم يكن ينقصني نساء جميلات من حولي.. هذا نوع من التمرّد على الذائقة والمفاهيم، ثورة إنسانية.»

● لا يمكن إذًا فصل قراءة النص الشعري عن القراءة التاريخية؟ هل هناك شعر مطلق؟

سميح القاسم: «لا، لا يمكن. لا يوجد شعر مطلق. الحديث عن هذا فيه سذاجة وربما نوع من الجهل والغباء. عن أيّ مطلق يتحدثون؟ هل سيكون ما كتبته وعمري

١٧ عامًا مشابهًا لما كتبته في السبعين من العمر؟ خذ أدونيس مثلا الذي يتكلم عن المطلق، هل قصائده في «مهيار» مثل قصائده الأخرى؟.. هذا حكي فاضي. لا يوجد شيء مطلق. الإنسان جزء عضوي من كون، حالة الطقس تؤثر عليه، وهذه العقلية الأبيقورية من الانقطاع عن العالم والذاتية والفردانية غير منطقية وغير واقعية وغير إنسانية حتى».

«الحياة مراحل،/ والشاعر يمرّ بهذه المراحل ويكتب عنها. فرامبو مثلا، لو لم يذهب إلى اليمن ويعمل في تجارة الأسلحة ويعش مع البحارة، لم يكن ليكتب ما كتب. شعره نتاج حياته وليس نتاج ثقافته. لا يوجد شعر ناتج عن الثقافة فقط؛ هناك الثقافة والحياة. تقرأ الصوفيين والديانات وكل ما تريد، لكن يظلّ الانخراط والتورط في الحياة يفرضان نفسيهما. أعجبتني كاتبة أمريكية، أعتقد أنها توني موريسون حائزة نوبل، حين قالت: لا أتخيل مبدعًا غير مُسيّس. كيف يمكن ذلك؟ أن يدير ظهره للعالم؟ ألم يقل ماركس: ليس لي قفا ثور لأديره للعالم. السؤال ليس في وجود السياسة، بل كيف يتم التعبير عن الموقف السياسي».

«خذ القطعة التي قرأتها (عن مجزرة قانا)، كان يمكن أن أكون أنا ضد الاحتلال وضد الغزو الإسرائيلي، ولكن هذا كلام عاديّ. على الشاعر أن يعبر عن الموقف السياسي بالأدوات الشعرية الخاصة.»

- حين ينتصر السياسي يخسر الشعر.

سميح القاسم: «يخسر الشاعر بلا شك. لا أريد أن أعطي أمثلة لأنّ جميعهم أصدقائي ولكن يوجد شعراء جيدون وكانت بداياتهم جميلة جدًا ولكن عندما ابتلعتهم السياسة فقدوا البوصلة وتقلصت شاعريتهم. الشاعر يحس باختلال التوازن بين همّه الشعري وبين السياسة.»

- أنت تلحن وترسم...

سميح القاسم: «(يتعجب بخجل) الصحيح أنّ المرحوم أخي سامي كان مغنياً

وعازف عود، وكنت أمسك العود وأعزف «سماعي» بلا دراسة، وقصة التلحين نكتة. وأنا أحبّ الرسم طبعًا. ولكن هذه الموهبة فطرية ولم أدرسها. وأنا نادم لأنني لم أدرس الموسيقى والرسم. ولكن ماذا يمكن للمرء أن يفعل؟ الحياة محدودة.»

- لكنك عوضت عن ذلك في الإيقاع والصورة الشعريين..

سميح القاسم: «بلا شك، الشعر ساعدني على تقديم الموسيقى واللوحة.»

- أحيانا يخالك المرء، وهو يقرأ شعرك، أنك تكتب وبيدك الأخرى تضرب إيقاعًا.

سميح القاسم: «ممكن، ممكن. نعم. كنت مرة مع الجواهري، رحمه الله، في القاهرة، وذهبنا للغداء. ثم بدأ يدندن بصوت عال وإيقاع حثيث، فقلت له: ما بك؟ شو صابك؟ فقال: «أدندن قصيدة.. أنا أغني القصيدة قبل كتابتها». يلحنها ثم يكتبها. هذه صفة مشتركة عند الكثير من الشعراء، الهمهمة. نعم، الإيقاع، مع أنّ هذه ليست مسألة سهلة بالمرة.»

- لديك طقوس للكتابة؟

سميح القاسم: «لا. كنت أسخر من الشعراء الذين يتحدثون عن طقوس خاصة. مرة قال شاعر أوروبي: لا أستطيع الكتابة إلا إذا شممت رائحة السّفرجل الفاسد. من أين سآتي له بسفرجل فاسد ؟.. «عُمرو لا يكتب»! (يضحك). رحمه الله أبو توفيق (نزار قباني) كان يحبّ الكتابة على ورق ملون. أنا في فترة معينة لم أكن أعرف الكتابة إلا بحبر سائل. كنت أخجل من الكتابة بحبر جافّ. ومع مرور الزمن تغيّرتُ، فأحيانا تكون في الطائرة مثلا وتأتيك شطرة وليس معك قلم سائل فتكتبها».

«لا أحبّ الحديث عن طقوس، ولكن هناك بيئة للكتابة. مثلا بعد منتصف الليل يكون الجميع نيامًا، أدخل المطبخ أو مكتبي هنا أو في الطابق السفلي. في المطبخ أكون بين رائحة القهوة، وأصوات أنفاس النيام، وقطة تموء في الكرم. يعني أصوات

الليل. هذا جوّ جميل جدًا للكتابة. أنا أكتب من منتصف الليل إلى الصباح. وتكلمت في مرات سابقة أنني أودّ الذهاب إلى الشهر العقاري لتطويب لحظات الفجر الأزرق في الصباح الباكر على اسمي. أنا أدّعي أنّ أحدًا في العالم لم يرَ هذه اللحظات مثلي. إنها لحظات قصيرة لا تدوم طويلا، ولكنها من أجمل لحظات الحياة. الانتقال من العتمة إلى الضوء، لحظات ساحرة. كنت في كل يوم تقريبًا، وبشكل لا شعوري أقوم عن الطاولة لأرى زرقة الفجر... لا أسميها طقوسًا، ربما هي العادة أو الظروف.»

- تذكّرني بجملة قلتها «دع القصيدة تأتي إليك». أنت جاهز دائمًا لاستقبالها، لا تستحم وتتعطر من أجلها..

سميح القاسم: «لا، لا أبدًا. رحمه الله أخي محمود كان يصحو في الصباح، ويستحم، ويلبس، ويجلس للكتابة. أسأله فيقول لي: لا أعرف إلا هذا. لكلّ إنسان عاداته. لا أحبّ تسمية الطقوس... يقولون لك لا أعرف الكتابة إلا إذا سمعت موسيقى كلاسيكية. ما هذا الكلام؟.. يمكنني أن أسمع موسيقى كلاسيكية وأكتب ويمكنني أن أسمع أحمد عدوية وأكتب. أحيانًا تجد شعراء أو فنانين يحبون خلق هالة حول أنفسهم بواسطة أمريْن: الحديث عن الطفولة البائسة، والحديث عن طقوس العملية الإبداعية. وأنا أصلا لا أحب تعبير «العملية الإبداعية». فليست كل كتابة عملا إبداعيًا. كلمة إبداع كلمة ليست سهلة، مع أنّ الجميع يستعملها.»

- ماذا يتغير على الإنسان حين يمرض بالسرطان؟ ماذا تعني العلاجات الكيماوية للجسد والروح؟ وماذا يعني أن يصيبك مرض مع احتمال كبير وواقعي بأنك ستموت بعده؟

سميح القاسم: «إذا قلت لك إنّ هذا لم يؤثر عليّ مطلقًا فهذا سيكون كلاماً وادعاءً غير مبررين. لا أدعي البطولة، ولكن أنا لي قناعات وإيمان. قناعاتي أنّه لا يوجد إنسان يحق له أن يقول «لا، هذا يحدث مع غيري ولا يحدث معي». الإنسان

معرّض لكل شيء. المفاجأة حين يقول لك الطبيب إنّ عندك ورمًا خبيثًا، لكن السّؤال يظل في ردة الفعل. وردّة فعلي العفوي كان: سرطان؟.. أنا لا أحب ثمار البحر، أريد سمكًا. وهو تفاجأ أيضًا. هل تعلم أنّ كل شخص ثالث في البلاد إما مريض بالسّرطان أو معرض له؟ وأنا أعيش هنا وجزء من هذا. يجب أن آخذ الأمور بروح رياضية وبواقعية ومن دون جبن. ليس عيبًا أن أقول إنني لست جبانًا. لم أكن جباناً في حياتي ولا أريد أن أصير في نهاية عمري جبانًا. وخاطبت الموت:

«أنا لا أحبك يا موت/ لكنني لا أخافك..

«لست خائفًا... أنا لا أعرف حتى أسماء الأدوية. لولا زوجتي لا أعرف شيئًا، ولا آخذ الأدوية. لا أذهب إلى مواعيد الفحص لولاها. المرض صعب، يُربك حياتك بلا شك. إلى أيّ مدى؟.. هذا يتوقف عليك وعلى معنوياتك وإيمانك.»

- هناك من يرى أنّ المرض نوع من أنواع الإهانة للجسم..

سميح القاسم: «أنظر. لا أريد أن أسميها إهانة. هي إرباك... لكن لم ينكسر فيّ شيء. وحين أذهب للعلاج يستقبلني المرضى والممرضات والأطباء بشكل استثنائيّ جدًا وبروح طيبة ومداعبة ومزاح. لم أنكسر. ولكن التوى فيّ شيء ما، بلا شك. أنا مَن كنت دائم السّفر أعتذر الآن عن الدعوات. هناك التواء، ولكن هناك قناعة أيضًا بأنّ هذه طبيعة الحياة. فمن غير المعقول ألا أكون عرضة للمرض أو لحادث طرق أو طائرة وأنا في الثانية والسبعين من عمري... لكنّ داخلي لم ينكسر.»

- هل تنظر إلى الوراء وتستعرض شريط حياتك؟.. نوستالجيا ربما؟

سميح القاسم: «ربما أكون اهتممتُ بطباعة السيرة في هذا الإطار. نوع من ترتيب الطاولة وأوراقي. طبعًا الإنسان يعود أحيانًا إلى أمور في حياته. ففي كل ليلة رأس سنة كان محمود يسهر معي، إما في البيت عند أهلي، أو في نادٍ ليليّ. وحتى بعد خروجه، وبعد أن اختلفنا ثم اصطلحنا، ظللنا نلتقي ونسهر في عيد ميلاده وعيد ميلادي. وفي ليلة رأس السنة بعد وفاته فتحت التليفون وطلبت رقمه. كان

لديّ إحساس بأنه سيردّ. حتى زوجتي دُهشت وسألتني بمن تتصل، قلت: بمحمود. لكنه لم يردّ.

- من هم أصدقاؤك؟ من تستشير؟ من يقرأ مخطوطاتك قبل النشر؟

سميح القاسم: «بطبيعتي لديّ أمران يبدو أنهما متناقضان جدًا. أنا أحبّ الناس والمجتمع، وفي الوقت نفسه أنا ذاتيّ جدًا. يمكنني أن أكون حاضرًا بين ألف إنسان وأكون وحدي. وتطوّرت عندي قدرة بمرور الزمن حيث يمكنني أن أنظر إلى إنسان وألا أراه. ويمكن أن أصغي إلى إنسان ولا أسمعه. وبشكل عام أنا أحبّ الناس وأحبّ تبادل الزيارات معهم، وبالنسبة للشعر فربما يوجد الكثير من الأنانية أو الفردية، فلم أحبّ يومًا أن أقرأ قصيدة جديدة لأصدقاء. الوحيد الذي كان كذلك، بحكم حياتنا المشتركة، هو محمود. أقرأ له ويقرأ لي. لكنني لا أشعر بحاجة لأن يسمع شخص ما ويقول رأيه. أنا أعيد القراءة مرة واثنتين، ولا أغيّر كثيرًا. قد أغيّر من مئة صفحة أربع أو خمس كلمات. يمكنني أن أشطب صورة بدلا من أخرى. هذا عمل فرديّ وشخصي جدًا، بيني وبين نفسي.»

- هل صحيح أنّ الكتابة تصبح أصعب كلما تقدّم المرء بالعمر؟

سميح القاسم: «الكتابة، دائمًا، سهلة وجميلة. الصعوبة تكمن في ما قبل الكتابة. اللحظة التي تكتمل لديك صورة فتكتبها، من أجمل لحظات الحياة. عملية خلق بكل معنى الكلمة. هكذا كتبت لمرض السرطان:

«اشرب فنجان القهوة يا مرض السرطان،
اشرب كي أقرأ بختك في الفنجان،
اشرب...

«وأنا أكتبها أكون مبسوطًا ومنسجمًا، ولكن قبل الكتابة يكون الواحد في نقاش بينه وبين نفسه: ماذا سأفعل به هذا مرض السرطان؟ هل سيكسرني أم أكسره؟ كيف سأتعامل معه؟ هناك أسئلة صعبة، ولكن عندما تصل إلى لحظة الكتابة مع فكرة وموقف في لا وعيك ووعيك، وتضع ذلك على الورقة، تكون لحظة ممتعة وسهلة

جدًا. إرهاصات القصيدة أصعب من القصيدة، فحين تنضج تصبح متعة جميلة جدًا. لا يمكن أصلا أن أباشر الكتابة قبل أن تكون القصيدة جاهزة.»

- أنت عمليًا تقوم بعملية تحرير النص قبل كتابته..

سميح القاسم: «طبعًا. أعيد الصورة والفكرة والبيت أكثر من مرة في مخيلتي، ومن الممكن تغيير بعض الكلمات، ولكنني أفضل تحرير النصّ قبل الكتابة. بعد الكتابة يمكنك أن تكتشف بعض الأمور الصغيرة، مش مشكلة.»

- ما هي متع الحياة الصغيرة؟ أنا أعرف أنك تحبّ لعبة «المحبوسة»...

سميح القاسم: «(يضحك) لا أعرف من ألعاب الطاولة إلا لعبة المحبوسة. أحبّ أن ألعبها مع أصدقاء ومعارف. كنت ألعبها مع محمود، رحمه الله، ومع أدونيس، أطال الله في عمره، ومع صليبا خميس، وحنا أبو حنا.. مع الأصدقاء المقرّبين. ألعب «الطرنيب» (الوِست) من ألعاب الورق. يجتمع الأصدقاء ونلعب ونتسلى. في شبابي كنت أحبّ السّينما كثيرًا. كنت أقول لمحمود: يوجد فيلم جديد. يقول لي: أنا أريد الذهاب إلى البحر. هو يذهب إلى البحر وأنا لمشاهدة الفيلم الجديد. كتبت زاوية في «الاتحاد» وقتها كان اسمها «سينَماذا»... كنت أكتب تعليقات عن آخر الأفلام التي كنت أشاهدها.»

- ما هي أفلامك المحببة؟

سميح القاسم: «لا أريد أن أتحدّث عن الأفلام الكبيرة والمعروفة، ولكن أذكر بشكل خاص فيلم «إنهم يطلقون النار على الخيول، أليس كذلك؟» (They Shoot Horses, Don't They?). فيلم مدهش في إنسانيته وعمقه. ولذلك بعد مشاهدة هذا الفيلم بفترة دعوني إلى مهرجان دوليّ ضدّ الرّقابة على الأدب في بريطانيا، وطلبوا أن اقترح عليهم شعارًا للمهرجان كما طلبوا من كلّ الضيوف. قلت لهم اقترح شعارًا بسيطًا: They Shoot Writers, Don't They. تبنوه فوراً كشعار للمهرجان.»

رغم العلاجات الأسبوعية والإرهاق الذي ينتاب الجسد بعدها، إلا أنّ القاسم يستعيد نشاطه بين وجبة علاج وأخرى، ويتابع الأخبار وتفاصيل الحياة. حتى في هذه اللحظات الحرجة من حياة أيّ إنسان يختار الحيّز العام على الصّومعة. قد يكون توق الشّاعر للعلن، للاختلاط وجسّ النبض والتيقظ الدائم لاستقبال القصيدة. وقد يكون سميح القاسم معجونًا بهذه الرغبة للبقاء في صورة الحدث، بعد حياة طويلة وعريضة كالتي عاشها ويعيشها وسيعيشها. لا أعرف. تراه يحيط نفسه بالكتب من كلّ جانب. يقرأ بنهم ويتابع ويتشبث بالنصّ كما لو أنه بدأ للتوّ.

في لحظة صافية لا أعرف إذا كانت مستسلمة أم مُقاوِمة، يقول بهدوء: «الآن، تبقّتْ لي القراءة».